

فرش كتاب الفريضة في الحروب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه رحمه الله : قد مضى قولنا في السلطان وتَعْظِيمه ، وما على الرعية من لزوم طاعته ، وإدامة نصيحته ؛ وما على السلطان من العَدْل في رعيّته ، والرفق بأهل مملكته .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها ، وقود الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبّر لها من إعمال الخُدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات . هذا بعد معرفة أحكامها ، وإحكام معرفتها ، وطول تجربته لها ولمقاساة الحروب ومُعانة الجيوش ، وعِلْمه أن لا درع كالصبر ولا حصن كاليقين . ثم نذكر كرم الإقدام ، ومحمود عاقبته ، ولؤم الفرار ، ومذموم مَغْبته . والله المُعين .

صفة الحروب

الحرب رَحَى ثِفَالها^(١) الصَّبْر، وقُطِبها المَكْر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمامها الحذر. ولكل شيء من هذه ثمرة، فثمرّة الصبر التأييد، وثمرّة المكر الظفر، وثمرّة الاجتهاد التوفيق، وثمرّة الأناة اليُمن، وثمرّة الحذر السلامة. ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمر بن معد يكرب: صِفْ لنا الحرب، قال: مُرة المذاق، إذا كشفت عن ساق، من صَبَر فيها عُرف، ومن نَكَل عنها تَلَف، ثم أنشأ يقول:

الحَرْبُ أول ما تكونُ فَتية تسمى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حِيت وشب ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل

(١) الثفال «كتاب»: جلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق.

شمطاء جَزَتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةٌ لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ^(١)
وَقِيلَ لَعْنَةُ الْفُؤَارِسِ: صِفْ لَنَا الْحَرْبَ. فَقَالَ: أَوَّلُهَا شَكْوَى، وَأَوْسَطُهَا نَجْوَى،
وَأَخْرَهَا بَلَوَى!

وَقَالَ الْكُمَيْتُ:

وَالنَّاسُ فِي الْحَرْبِ شَتَّى وَهِيَ مُقْبِلَةٌ وَتَسْتَوُونَ إِذَا مَا أَدْبَرَ الْقَبْلُ
كَلَّ بِأَمْسِيَّهَا طَبَّ مَوْلِيَةٍ وَالْعَالَمُونَ بِذِي غُدُوِّيَّهَا قُلُّ
وَقَالَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ صَاحِبُ خِرَاسَانَ يَصِفُ الْحَرْبَ وَمُبْتَدَأَ أَمْرِهَا:

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَهْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودِينَ تُذَكِّي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلَهَا الْكَلَامُ
فَإِنَّ لَمْ يُطْفِئْهَا عَقْلَاءُ قَوْمٍ يَكُونُ وَقُودُهَا جُثَثُ وَهَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَلْيَقَظَ أُمِّيَّةٌ أَمْ نِيَامُ؟!
وَفِي حِكْمَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: الشَّرُّ حُلُوْ أَوَّلُهُ: مَرُّ آخِرِهِ.

وَالْعَرَبُ تَقُولُ: الْحَرْبُ غَشُومٌ؛ لِأَنَّهَا تَنَالُ غَيْرَ الْجَانِي.

وَقَالَ حَبِيبُ:

وَالْحَرْبُ تَرْكَبُ رَأْسَهَا فِي مَشْهَدٍ عُدِلَ السَّفِيهِ بِهِ بِأَلْفِ حَلِيمٍ
فِي سَاعَةٍ لَوْ أَنَّ لِقَمَانَا بِهَا وَهُوَ الْحَكِيمُ لَكَانَ غَيْرَ حَكِيمٍ!
وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ حَكِيمُ الْعَرَبِ: لَا حِلْمَ لِمَنْ لَا سَفِيهِ لَهُ.

وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: مَا قَلَّ سَفَهَاءُ قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا ذَلُّوا.

وَقَالَ: لِأَنَّهُ يُطِيعُنِي سَفَهَاءُ قَوْمِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُطِيعَنِي حُلَمَاءُهُمْ.

وَقَالَ: أَكْرَمُوا سَفَهَاءَكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَكْفُونَكُمْ النَّارَ وَالْعَارَ.

وَقَالَ النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوِهِ أَنْ يُكَدَّرَا
وَأَنْشَدَ هَذَا الشَّعْرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى هَذَا الْبَيْتِ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا

(١) انظر: ابن قتيبة المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٠.

يَفْضُضُ اللَّهُ فَالْكَ». فَعَاشَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ لَمْ تَسْقُطْ لَهُ ثَنِيَّةٌ^(١).

وَقَالَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي يَصِفُ الْحَرْبَ:

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الْإِظْلَامُ إِظْلَامٌ!
يُرِيدُ بِقَوْلِهِ:

* تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ *

شِدَّةَ الْهَوْلِ وَالْكَرْبِ، كَمَا تَقُولُ الْعَامَّةُ: أَرَيْتُهُ النُّجُومَ وَسَطَ النَّهَارِ.
قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

أُرِيكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ

وَقَالَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ:

وَتُرِيكَ النُّجُومَ يَجْرِي بِالظُّهْرِ

وَالِيهِ ذَهَبَ جَرِيرٌ فِي قَوْلِهِ:

وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ
يَقُولُ: الشَّمْسُ طَالِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ نَجُومَ اللَّيْلِ، لَشِدَّةِ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ الَّذِي
فِيهِ النَّاسُ.

وَمِنْ قَوْلِنَا فِي صِفَةِ الْحَرْبِ:

وَمُغْبَرٌّ السَّمَاءُ إِذَا تَجَلَّى يَغَادِرُ أَرْضَهُ كَالْأَرْجَوَانِ
سَمُوتَ لَهُ سَمُو النَّقْعِ فِيهِ بَكَلَ مَذْلَقَ سَلْبٍ^(٢) السَّنَانِ
وَكُلَّ مَشْطَبٍ^(٣) الْمَتْنِينَ صَافٍ كَلُونَ الْمَلَحِ مَنْصَلَتِ يَمَانِي

(١) أوردته الحافظ بن حجر في الإصابة وقال: أخرجه البزار والحسن بن سفيان في مسنديهما وأبو نعيم في تاريخ أصبهان والشيرازي في الألقاب كلهم من رواية يعلى بن الأشدق قال: وهو ساقط الحديث. الإصابة جـ ٣، ص ٥٠٩، وانظر: المطالب العالية، ص ٤٠٦٥.

(٢) مَذْلَقٌ: مَحْدَدٌ وَسَلْبٌ: طَوِيلٌ.

(٣) مَشْطَبٌ: فِيهِ طَرَائِقٌ، وَمَنْصَلَتٌ: صَقِيلٌ مَاضٍ.

كأن نهاره ظلماء ليل
وفي صفة المعتك :
وَمُعْتَرَك تَهَزَّ بِهِ الْمَنَايَا
لَوَامِعٌ يُبْصِرُ الْأَعْمَى سَنَاهَا
وَخَافِقَةُ الذَّرَائِبِ قَدْ أَنْفَأَتْ
تُحَوِّمُ حَوْلَهَا عُقْبَانُ مَوْتٍ
بِیَوْمٍ رَاحَ فِي سِرْبَالِ لَيْلٍ
وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَرْنُو فِي قَتَامٍ
فَكَمْ قَصُرَتْ مِنْ عُمَرٍ طَوِيلٍ

كواكبه من السمر اللدان^(١)
ذُكُورَ الْهِنْدِ فِي أَيْدِي ذُكُورٍ
وَبَعْمَى دُونَهَا طَرْفَ الْبَصِيرِ
عَلَى حَمَاءِ ذَاتِ شَبَابٍ طَرِيرٍ
تَخَطَّفَتْ الْقُلُوبَ مِنَ الصَّدُورِ
فَمَا عُرِفَ الْأَصِيلُ مِنَ الْبُكُورِ
رُنُوءَ الْبَكْرِ مِنْ بَيْنِ السُّتُورِ
بِهِ وَأَطْلَتْ مِنْ عُمَرٍ قَصِيرٍ

العمل في الحروب

قيل لأَنتُمْ بن صَيْفِي : صِفْ لَنَا الْعَمَلَ فِي الْحَرْبِ . قَالَ : أَقْلُوا الْخِلَافَ عَلَى
أَمْرَائِكُمْ ، فَلَا جَمَاعَةَ لِمَنْ اخْتَلَفَ عَلَيْهِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصِّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، فَتَشَبَّهُوا ؛
فَإِنْ أَحْزَمَ الْفَرِيقَيْنِ الرُّكْبَيْنِ ، وَرَبَّ عَجَلَةٍ تُعَقِّبُ رِيشًا . وَادْرَعُوا اللَّيْلَ ، فَإِنَّهُ أَخْفَى
لِللَّيْلِ ، وَتَحَفَّظُوا مِنَ الْبَيَاتِ .

وَقَالَ شَبِيبُ الْحَرُورِيِّ : اللَّيْلُ يَكْفِيكَ الْجَبَانَ وَنِصْفَ الشُّجَاعِ .
وَكَانَ إِذَا أَمْسَى يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : أَتَاكُمُ الْمَدَدُ يَعْنِي اللَّيْلُ .
وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : الْمَنَازَعَةُ فِي الْحَرْبِ خَوْرٌ ، وَالصِّيَاحُ فِيهَا فُشْلٌ .
وَقَالَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ لَمَّا رَأَى عَسْكَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَمَا تَرَوْنَهُمْ
خَرَسًا لَا يَتَكَلَّمُونَ ، يَتَلَمَّظُونَ تَلَمَّظَ الْحَيَاتِ .
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ أَكْثَرَ النَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ ، لَمْ يَشْجُعْ .
وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرَّرٍ لِأَصْحَابِهِ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ : إِنِّي هَازٍ لَكُمْ الرَّايَةَ ، فَلْيُصْلِحْ

(١) السمر اللدان : الرماح اللينة .

كل رجل منكم من شأنه، وليُشدَّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هارّها لكم الثانية، فليُنظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوّه، ومكان فرصته ثم إني هارّها لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله.

وفي النعمان بن مُقرّن هذا يقول عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه - إذ تكاملت عنده الحشود وتطلّع الصحابة إلى التقدم عليها - : لأقلدنّ أعتتها رجلا يكون عداء لأوّل أسنة يلقاها. فقلّدها النعمان بن مُقرّن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : انتهزوا الفرصة، فإنها تمر مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثراً بعد عين.

وقال بعض الحكماء : انتهز الفرصة، فإنها خلسة؛ وثب عند رأس الأمر، ولا تيب عند ذنبه. وإياك والعجز، فإنه أذلّ مركب؛ والشفيع المهين، فإنه والله أضعف وسيلة.

وخرجت خارجة بخراسان على قتيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقليل له : ما يُهمك منهم؟! وَجّه إليهم وكيع بن أبي سود؛ فإنه يكفيكم. فقال : لا، إن وكيعا رجل به كبر، يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلّت مبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم، فيجد عدوّه غرة منه.

وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم في القتال فقال : مُحاطلة العدو عن الريف، وإعداد العيون على الرصد، وإعطاء المبالغين على الصدق، ومُعاقبة المتوصّلين بالكذب، والألّا تُخرج هاربا إلى قتال، ولا تُضيّق أماننا على مُستأمن، ولا تشدهنك^(١) الغنيمة عن المحاذرة.

وفي بعض كتب العجم : أن حكيمًا سُئل عن أشدّ الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لها فقال : تعود القتال وكثرته وأن يكون لها مواد من ورائها.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية :

(١) لا تدهشك : لا تدهشك.

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة وإن لم تكن لي فرصة فجبان
وقال الأحنف بن قيس: إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه.
قال هذبة العذري^(١):

ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب
ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب

الصبر والإقدام في الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).
وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة. واعتبر من ذلك، أن من يُقتل مُدبراً أكثر ممن يُقتل مُقبلاً؟
ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة^(٣).

والعرب تقول: الشجاع موقى، والجبان ملقى.
وقال أعرابي: الله تخلف ما أتلّف الناس، والدهر متلف ما جمعوا؛ وكم من منية علّتها طلب الحياة، وحياة سببها التعرض للموت^(٤).
وكان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يُذمر^(٥) الناس ويقول: يا أهل الإسلام، إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النصر^(٦).

(١) نسب هذا الشعر للبعث كما نسب لتأبط شراً؛ انظر: عيون الأخبار، ج١.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤٥.

(٣) ابن قتيبة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٦، ٢٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٥) يذمر الناس: يحضهم على القتال.

(٦) ابن قتيبة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٨.

وكتب أنوشروان إلى مرزبته : عليكم بأهل الشجاعة والسخاء فإنهم أهل حسن الظن بالله .

وقالت الحكماء : استقبال الموت خيرٌ من استدباره .

وقال حسان بن ثابت :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
وقال العلوي في هذا المعنى :

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالٍ خَيْلِي عَلَى الْقَنَا وداميةٌ لبائتها ونُحُورُهَا
حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنٌ مُدْبِرٍ وتغرق منها في الصدور صُدُورُهَا

وكانوا يتهاجون بالموت قَعْصاً^(١)، ويتهاجون بالموت على الفراش، ويقولون فيه : مات فلان حتف أنفه . وأول من قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام^(٢) .

وخطب عبد الله بن الزبير الناس لما بلغه قتل مصعب أخيه فقال : إن يُقتل فقد قُتل أبوه وأخواه وعمّه . إنا والله لا نموت حتفاً، ولكن نموت قَعْصاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف ؛ وإن يُقتل مصعب فإن في آل الزبير خلفاً منه .

وقال السموأل بن عدياء :

ما مات منا سيّد حتف أنفه ولا طُلّ منا حيث كان قتيلُ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسُنَا وليس على غير السُّيُوفِ تَسِيلُ
وقال آخر :

وإنا لتستحلى المنايا نفوسُنَا ونترك أخرى مُرَّةً ما نذوقها
وقال الشنفرى :

فلا تدفنوني إن دفنى مُحَرَّمٌ عليكم ولكن خامري أمّ عامرٍ
إذا حملت رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري

(١) يقال : مات قَعْصاً، إذا أصابته ضربه أو رمية فهات مكانه .

(٢) رواه أحمد في مسنده [٣٦/٤] عن عبد الله بن عتيك رضي الله عنه بلفظ : «... أو مات حتف أنفه . . . إلى قوله : ومن مات قَعْصاً فقد استوجب المآب» . قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني وفيه

محمد بن إسحاق مدلس وبقية رجال أحمد ثقات . انظر : مجمع الزوائد (٥/٢٧٦) .

هُنالك لا أبغى حياة تُسرني سَجِيسَ^(١) الليالي مُبَسلاً^(٢) بالجرائر
قوله : خامري أم عامر، هي الضَّبْع . يعني بقوله : إذا قتلتموني فلا تدفنوني ولكن
ألقوني إلى التي يقال لها : خامري أم عامر، وهي الضَّبْع وهذا اللفظ بعيد من المعنى .
وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب [رضي الله عنه] - وقيل له : أقتل أهل الشام بالغداة
وتظهر بالعشى في إزار ورداء؟ - فقال : أ بالموت تُخَوِّفوني ! فوالله ما أبالي أسقطت على
الموت أم سقطت عليّ .

وقال لابنه الحسن [رضي الله عنهما] : لا تدعُون أحداً إلى المبارزة، وإن دُعيت إليها
فأجب ؛ فإنني الداعي إليها باغ، والباغي مصروع^(٣) .
وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : بقية السيف أنمى عدداً، وأطيب
ولداً^(٤) يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددهم، ونمى ولدهم .
ومما يستدلّ به على صدق قوله : ما عمل السيف في آل الزبير، وآل أبي طالب،
وما كثر من عددهم .

وقال أبو ذؤلف العجلي :

إني امرؤ عودني مهري ركوب الغلس^(٥)
يحمدي سيفي كما يحمد كري فرسي
سيفي بليلى قبسي وفي نهاري أنسي
وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان :

لستُ لريحان ولا راح ولا على الجار بنباح

(١) سَجِيسَ الليالي : أي أبداً .

(٢) مُبَسلاً : أي مسلماً . يقول : لا أرجو في ذلك الوقت حياة سارة طول الليالي وأنا مسلم للأعداء
بجرائري فيكون سبب شياتهم .

(٣) انظر : ابن قتبية، المصدر السابق، ج١، ص ٢١٠ مع بعض الاختلاف .

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٢١٣ مع اختلاف يسير .

(٥) الغلس : ظلام آخر الليل .

فإن أردت الآن لي موقفاً فبين أسيافٍ وأرماح
تري فتى تحت ظلال القنا يقبض أرواحاً بأرواح
وقال أشهب بن رميلة :

أسود شرى لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الأساود^(١)
وقيل للمهلب بن أبي صفرة : ما أعجب ما رأيت في حرب الأزارقة؟ قال : فتى
كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول :

وسائلة بالغيب عنى ولو درت مقارعتي الأبطال طال نحيها
إذا ما التقينا كنت أول فارس يجود بنفس أثقلتها ذنوها
ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده . فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك .

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة : يا أبا سعيد ، هل دخلك دُعر قط لحرب
أو عدو؟ قال : ما سلمت في ذلك من دُعر يُنبه على حيلي ، ولم يغشني دُعر قط سلبني
رأبي . قال هشام : صدقت ، هذه والله البسالة .
وقيل لعنرة : كم كنت يوم الفُروق^(٢)؟ قال : كنّا مائة ، لم نكثر فتتكل^(٣) ، ولم نقل
فندل .

وكان يزيد بن المهلب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حصين بن الحمام :
تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدّما
وقالت الخنساء :

نمين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها
وقيل لعباد بن الحصين - وكان من أشد أهل البصرة - : في أي عُدّة كنت تريد أن
تلقى عدوك؟ قال : في أجل مستأخر .

(١) الحرد : الغضب .

(٢) الفروق : موضع بديار بني سعد ، كان فيه يوم من أيام حروب عبس وذبيان .

(٣) فتتكل : أي يتكل بعضنا على بعض .

وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله عنه يوم صفين :

أَبَتْ^(١) لِي شِيمَتِي وَأَبَى بِلَاثِي
وإقدامي على المكروه نفسي
وقولي كلما جشأت وجاشت^(٢)
لأدفع عن مآثر صالحات
ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة :

وقولي كلما جشأت لنفسي
فإنك لو سألت حياة يوم
وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول :

أيُّ يومٍ من الموت أفر
يوم لا يُقدر لا أهربه
ومثله قول جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجه
وهذا البيت في شعره الذي أوله :

* هاج الهوى لفؤادك المهتاج *

ومدح فيه الحجاج ، فلما أنشده :

* قل للجبان إذا تأخر سرجه *

قال : جرأت علي الناس قال : والله ما ألقى لها بالاً أيها الأمير إلا وقتي هذا ! .

ونظير هذا مما يُشجّع الجبان قول غنّرة الفوارس :

بكرت تخوّفني الخُتوف كأنني
فأجبتُها إنَّ المنية منهل
أصِبتُ عن غرض الخُتوف بمعزل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل
أني امرؤ سأموت إن لم أقتل
فاقتي حيائك لا أبالك واعلمي

(١) نسب هذا الشعر لعمر بن الإطابة .

(٢) جشأت : أي تطلعت ونهضت جزعاً وكرهاة .

ومن أحسن ما قالوه في الصبر قول نهشل بن خري بن ضمرة النهشلي:
 ويوم كأن المصطلين بحرّه
 صبرنا له حتى يَبُوخ^(١) وإنما
 وأحسن من هذا عندي قول حبيب:
 فأثبت في مُستنقع الموت رجله
 تردى ثياب الموت مُحرّاً فما أتى
 وأحسن من هذا قوله:
 يستعذبون مناياهم كأنهم
 وقوله في المعنى:
 قوم إذا لبسوا الحديد حسبتهم
 انظر فحيث ترى السيوف لوامعاً
 وقال الجحّاب بن حكيم:
 شهدن مع النبيّ مسومات
 ووقعة راهط شهدت وحلت
 نُعرّض للطّمان إذا التقينا
 أخذته من قولهم: ضربة بسيف في عزّ، خير من لكمة في ذلّ.
 ومن أحسن ما وُصفت به رجال الحرب قول الشاعر:
 رويداً بني شيان بعض وعيدكم
 تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوعى
 إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
 تُلاقوا غداً خيلى على سفوان^(٣)
 إذا ما غدت في المأزق المتداني
 لأية حرب أم بأي مكان

(١) يبوخ: يسكن.

(٢) الحوامي: ميامن الخافر ومياسره.

(٣) سفوان: ماء على أميال من البصرة، وكانت بنو شيان توعدهم تمياً وتزعم أن سفوان لهم، وأرادوا إجلاء بني مازن عنه ومن كان معهم من بني تميم.

ونظير هذا قول الآخر:

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارهم
وإذا دعوتهمُ ليومِ كريمةٍ
لا يَنكُتون الأرضَ عند سُؤالهم
بل يُسفِرون وجوههم فترى لها
ومن أحسن المحدثين تشبيهاً في الحرب، مسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد ابن مزيد:

تلقى المنية في أمثال عُدتها
تجود بالنفس، ضن الجواد بها
وقوله أيضاً:

موفٍ على مَهَج في يوم ذي رهج
ينال بالرفق ما تعيا الرجال به
وقال أبو العتاهية^(١):

كأنك عند الكَرِّ في الحرب إنما
كأن المنايا ليس تجري لدى الوغى
فما آفة الأجال غيرك في الوغى
وقال زيد الخيل:

وقد علمت سلامة أن سيفي
أحادثه^(٢) بصقل كل يوم
وأعجمه^(٣) بهامات الرجال

(١) هذا الشعر قاله أبو العتاهية يمدح به يزيد بن مزيد الشيباني. «انظر ديوان أبي العتاهية طبعة بيروت».

(٢) أحادثه: أجلوه.

(٣) أعجمه: أبلوه وأخبره.

وقال أبو مُحَلَّم السعدي^(١) :

تقول وصكت وجهها بيمينها
فقلت لها لا تعجلي وتبيني
ألست أرد القرن يركب رده^(٢)
إذا هاب أقوام تقحمت غمرة
لعمر أبيك الخير إني لخدم
وقال آخر يمدح المهلب بالصبر:
وإذا جددت فكل شيء نافع
وإذا أتاك مهلب في الوغى
ومن قولنا في وصف الحرب:
سُوف يَقِيلُ المَوْتُ تحت طياتها
إذا اصطفت الرايات حمرا متونها
ولم تنطق الأبطال إلا بفعلها
إذا ما التقوا في مأزق وتعانقوا

أبعلي هذا بالرحى المتقاعس^(٣)
بلائي إذا التفت علي الفوارس
وفيه سنان ذو غرارين نائس^(٤)
يهاب حياها الألد المداعس^(٥).
لضيفي وإني إن ركب لفسارس
وإذا حددت فكل شيء ضائر
في كفه سيف فتعم الناصر
ها في الكلى طعم وبين الكلى شرب
ذوائبها تهفو فيهبو لها القلب
فألسنها عجم وأفعالها عرب
فلقياهم طعن وتقبيلهم ضرب

(١) أبو محلم، هو محمد بن سعد، وقيل محمد بن هشام بن عوف السعدي. وقد نسب هذا الشعر في شرح ديوان الحماسة هذلول بن كعب العنبري. كما نسب في الكامل للمبرد لأعرابي من بني سعد بن زيد مناة، وكان مملكا، فنزل به أضياف فقام إلى الرحى فطحن لهم، فمرت به زوجته في نسوة فقالت هن: أهذا بعلي؟ فأعلم بذلك، فقال هذا الشعر.

(٢) المتقاعس: الذي دخل ظهره وخرج صدره، يقول: إن امرأتي حين رأيتني وأنا أطحن بالرحى للأضياف ضربت وجهها بيمينها تأسفا منها أني أتولى عمل الرحى وأنا زوجها، وأنكرت مني هذا الفعل.

(٣) يركب رده، أي يخر صريعا لوجهه.

(٤) كذا في شرح الحماسة. والغرار: حد السيف. والنائس: المضطرب.

(٥) هياها: شدتها. والألد: اللجوج الشديد الخصومة. والمداعس: المطاعن.

ومن قولنا في رجال الحرب، وأن الوغى قد أخذت من أجسامهم فهي مثل
السيف في رقتها وصلابتها:

سَيْفٌ تَقَلَّدَ مِثْلَهُ عَطَفَ الْقَضِيبَ عَلَى الْقَضِيبِ
هَذَا تُجَزُّ بِهِ الرِّقَا بُ وَذَا تُجَزُّ بِهِ الْخُطُوبُ
ومن قولنا أيضاً:

تراه في الوغى سيفاً صقيلاً يُقَلِّبُ صَفْحَتِي سَيْفٌ صَقِيلٌ
ومن قولنا أيضاً:

سَيْفٌ عَلَيْهِ نِجَادٌ سِيفٌ مِثْلُهُ فِي حَدِّهِ لِلْمُفْسِدِينَ صَلاَحُ
ومن قولنا أيضاً في الحرب وذكر القائد^(١):

مَقِيلُكَ تَحْتَ أَظْلَالِ الْعَوَالِي وَبَيْتُكَ فَوْقَ صَهَوَاتِ الْجِيَادِ
تَبَخَّرْتُ فِي قَمِيصٍ مِنْ دِلَاصٍ وَتَرَفُّلٍ فِي رِداءٍ مِنْ نِجَادِ^(٢)
كَأَنَّكَ لِلْحُرُوبِ رَضِيعٌ ثَدِي غَدَتِكَ بِكُلِّ دَاهِيَةٍ نَادِ^(٣)
فَكَمْ هَذَا التَّمَنِّي لِلْمَنَايَا وَكَمْ هَذَا التَّجَلُّدُ لِلْجِلَادِ
لئن عُرِفَ الْجِهَادُ بِكُلِّ عَامٍ فَإِنَّكَ طَوَّلَ دَهْرَكَ فِي جِهَادِ
وإنك حين أبْتَ بِكُلِّ سَعْدٍ كَمِثْلِ الرُّوحِ أَبَّ إِلَى الْفُؤَادِ
رَأَيْنَا السَّيْفَ مُرْتَدِيًا بِسَيْفٍ وَعَايَنَّا الْجَوَادَ عَلَى الْجَوَادِ
وقد وصفنا الحرب بتشبيهه عجيب لم يُتَقَدَّمْ إليه، ومعنى بدیع لا نظير له، وذلك
قولنا:

وَجَيْشٌ كَظْهَرِ الْيَمِّ تَنْفَحُهُ الصَّبَا يَعْبُ عُبُوبًا مِنْ قَنَا وَقَنَا بِلِ
فَتَنْزِلُ أَوْلَاهُ وَلَيْسَ بِنَازِلِ وَتَرْحَلُ أَخْرَاهُ وَلَيْسَ بِرَاحِلِ
وَمُعْتَرَكُ ضَنْكَ تَعَاطَتْ كُمَاتُهُ كَوْوَسِ دِمَاءٍ مِنْ كُلِّ وَمَفَاصِلِ
يُدِيرُونَهَا رَاحًا مِنَ الرُّوحِ بَيْنَهُمْ بَيْضُ رِقَاقٍ أَوْ بُسْمَرِ ذَوَابِلِ

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي عبدة القائد.

(٢) الدلاص: الدرع، الواحد والجمع فيه سواء.

(٣) الناد: الداهية.

غناء صليل البيض تحت المناصل

يوم الوغى سيف من الحزم
لا صلة القربى ولا الرحم
شوقا إلى الهجران والصرم
بكل كأس مرة الطعم
تغور بين الجلد والعظم
ما شئت من حذف ومن خرم
وطاعة الأعداء عن رغم
هيهات ليس الخضم كالقضم^(١)

ما منهم فوق متن الأرض ديار
كادت تميز من غيظ لها النار
مستأسد حنق الأحشاء هدار
منها على الناس آفاق وأقطار
ما يستضاء بها نور ولا نار
قبا^(٥) طواها كطي العصب إضمار
كانها لاعتدال الخلق أفهار^(٧)

وتسمعهم أم المنيّة وسطها
ومن قولنا في هذا المعنى :

سيف من الحنف تردى به
مواصلا أعداءه عن قلى
وصل يحن الإلف من بغضه
حتى إذا نادى بهم سيفه
ترى حمياها بهاماتهم
على أهازيج ظبا بينها
طاعوا له من بعد عصيانهم
وكم أعدوا واستعدوا له
ومن قولنا في شبهه :

كم ألحم السيف في أبناء ملحمة
وأورد النار من أرواح مارقة^(٢)
كانما صال في ثنى مفاضته^(٣)
لما رأى الفتنة العمياء قد رجبت^(٤)
وأطبقت ظلم من فوقها ظلم
قاد الجياد إلى الأعداء سارية
ملومة تتبارى في مللمة^(٦)

(١) الخضم : الأكل بأقصى الأضراس . والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(٢) المارقة : الخارجون عن الجماعة .

(٣) المفاضة : الدرع الواسعة .

(٤) رجبت الفتنة ، أي اتسعت وعمت .

(٥) القب : الضوامر البطون ؛ الواحد : أقب .

(٦) المللمة : المجتمعة ؛ يريد الكتيبة .

(٧) الأفهار : حجارة يدق بها الطيب ؛ الواحد : فهرة .

تزوّد عند احتماس الطعن أعينها
تفوت بالثأر أقواماً وتدرّكه
فأنساب ناصر دين الله يقدمهم
كتائب تبارى حول رايته
قوم لهم في مكر الليل غمغمة
يستقدمون كراديساً^(١) مكرسة
من كل أروع لا يرعى لها جسة
في قسطل^(٢) من عجاج الحرب مدّ له
فكم بساحتهم من شلو مضرح
كأنما رأسه أفلاق حنظلة
وكم على النهر أوصالا مقسمة
قد فلقت بصفيح الهند هامهم

وهنّ من فرجات النقع نظار
من أخسرين إذا لم يدرك الثار^(٣)
وحوله من جنود الله أنصار
وجحفل كسواد الليل جرّار
تحت العجاج وإقبال وإدبار
كما تدفع بالتيار تيار
كأنه مخدر في الغيل هصار^(٤)
بين السماء وبين الأرض أستار
كأنه فوق ظهر الأرض إجار^(٥)
وساعده إلى الزندين جمار
تقسّمها المنايا فهي أسطار
فهنّ بين حوامي^(٦) الخيل أعشار
ومن قولنا في الحروب :

وحومة غادرت فرسانها
في مبرك للحرب جمعاع^(٧)

وحنومة غادرت فرسانها

(١) يريد أن تلك الخيل تفوت من طلبها بالثأر فلا يقدر عليها لسرعتها، كما أنها تلحق من يريد أن يفتتها فتدرك ثأرها منه .

(٢) كراديسا، أي جماعات عظيمة من الخيل ؛ الواحدة : كردوسة (بضم الكاف) .

(٣) المخدر (بكسر الدال وفتحها) : الأسد الملازم خدره، أي : أجمته . والحصار : من المصّر، وهو الكسر والدق .

(٤) القسطل : الغبار الساطع في الحرب .

(٥) الإجار : السطح ، كالإنجار (بالنون) ، وهي لغة أهل الشام والحجاز . يريد أن ذلك الشلو قد سوى بالأرض فصار كالسطح على سطحها .

(٦) الحوامي : ميامن الحافر ومياسره . يريد تشبيه هامات القتل بجرور الميسر، أي أنها مقسمة بين حوافر الخيل .

(٧) الجمعاع : الموضع الضيق الخشن .

مُفرق للشمل جُماع
بفيلق كالسَّيل دُفاع
منهم بهام فوق أذراع
كانهم جنُّ بأجرع^(٢)
مثل مدبَّ النمل في القاع^(٣)
عن كوكب للموت لماع

يلتمع الموت في ذراها
طحطحت^(٤) الشَّم من رباها
إذا رأى فرصة قضاها
يستبق الموت في ظباها
إذا انتضى عزمه انتضاها
تجنى كلا^(٥) العُشب من كلاها
عن حومة الموت إذ رآها
تفغر بالموت لهوتاها
فماها القوم واشتهاها

مُستلحم بالموت مستشعر
وبلدة صحصحت منها^(١) الرُّبا
كانها باضت نعام الفلا
تراهم عند احتماس الوغى
بكل مأثور على متنه
يرتد طرف العين من حدّه
ومن قولنا في الحرب:

ورُب ملتفة العوالي
إذا توطأت^(٤) حُزون أرض
يقودها منه ليثُ غاب
تُضي بآرائه سُيوف
بيض تحلُّ القلوب سوداً
تبعه الطيرُ في الأعادي
أقدم إذ كاع^(٧) كلُّ ليثٍ
فأقحم الخيل في غمار
عنت له أوجه المنايا

(١) صحصحت منها الربا، أي جعلت مرتفعاتها صحصحا، وهو ما استوى من الأرض، كالصحصاح.

(٢) الأجرع: الأرض ذات الحزونة؛ وقيل: هي الرمال السهلة المستوية.

(٣) المأثور: السيف الذي في متنه أثر، وهو فرنده. والقاع: الأرض السهلة.

(٤) توطأت: أصله توطأت.

(٥) وطحطحت الشَّم من رباها. أي كسرتها ودققتها.

(٦) كلا العُشب، يريد: كلا العُشب، فسهل.

(٧) كاع: جُن.

فرسان العرب في الجاهلية والإسلام

كان فارسُ العرب في الجاهلية ربيعة بن مُكَدَّم ؛ من بني فراس بن غنم بن مالك ابن كِنانة، وكان يُعقر على قبره في الجاهلية، ولم يُعقر على قبر أحد غيره . وكان بنو فراس بن غنم بن كِنانة أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم . وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة : من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب . أبدلكم الله بي من هو شر لكم، وأبدلي بكم من هو خير منكم . وددت والله أن لي بجمعكم - وأنتم مائة ألف - ثلاثمائة من بني فراس بن غنم .

ومن فرسان العرب في الجاهلية : عَنَترة الفوارس، وعُتَيبة بن الحارث ابن شهاب، وأبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأخيمر السعدي، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن عبد وُد، وعمرو بن مَعَدٍ يكرِب . وفي الإسلام : أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبير، وطلحة، ورجال الأنصار، وعبد الله بن خازم السلمي، وعَبَاد بن الحُصَيْن، وعُمير بن الحُبَاب، وقَطَرِي بن الفُجَاءة، والحَرِيش بن هِلَال السَّعْدِي، وشَيْبِيب الحَرُورِي^(١) . وقالوا : ما استحيأ شجاع قطَّ أن يَفِرَّ من عبد الله بن حازم، وقَطَرِي بن الفُجَاءة صاحب الأزارقة .

(١) كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يَحْتَمُونَ به عندما يشتد وطيس المعركة كما حدث يوم أحد .

فقد روى مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أقرب إلى القوم منه . انظر صحيح مسلم [١٧٧٦] كتاب الجهاد والسير . وانظر الذهبي / تاريخ الإسلام - السيرة النبوية ص ٤٦٢ وروى البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي وابن سعد عن أنس رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ أجمل الناس وجهاً وأجودهم كفاً وأشجعهم قلباً» .

وقالوا: ذهب حاتم بالسقاء، والأحنف بن قيس بالحلم، وخريم بالنعمة، وعمير بن الحباب بالشدة.
وكان شبيب الحروري يصيح في جنابات الجيش، فلا يلوى أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والرياح عاصفةً والموج يلتطم
ورجال الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استلت السيف،
ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابننا قيلة يعني الأوس
والخزرج. وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد.
العتبي قال: لما أسن أبو براء عامر بن مالك، وضعفه بنو أخيه وخرفوه، ولم يكن
له ولد يحميه، أنشأ يقول:

دفعتمكم عني وما دفع راحة بضعتني حلمي وكثرة جهلكم
وقال تأبط شراً:

قليل التشكي للمهم يصيبه بيت بمومة ويضحي بغيرها
إذا حاص عينه كرى النوم لم يزل ويعمل عينه ربيثة قلبه
إذا هزه في عظم قرن تهللت

كثير الهوى^(١) شتى النوى والمسالك
جحيشا ويعروري ظهور المهالك^(٢)
له كاليء من قلب شيخان^(٣) فاتك
إلى سلة من حدأ خلق باتك^(٤)
نواجذ أفواه المنايا الضواحك

(١) كثير الهوى، أي متعدد المقاصد.

(٢) المومة: المفازة لا ماء فيها. وجحيشا، أي منفردا. ويعروري، أي يركب؛ وأصله من اعروري الدابة، إذا ركبها عارية الظهر.

(٣) الشيخان: الحازم.

(٤) الربيثة: الرقيب. والسلة: المرة، من سل السيف، إذا جرده. والأخلق: الأملس. والباتك: القاطع.

وقال أبو سعيد المخزومي ، وكان شجاعاً :

وما يريد بنو الأغبار^(١) من رجلٍ
لا يشرب الماء إلا من قليب دمٍ
ونظير هذا قول بشار العقيلي :

فتى لا يبيت على دمنة^(٢) ولا يشرب الماء إلا بدمٍ
وذكر مَتمم بن نُيرة أخاه مالكاً وجلده ، فقال : كان يخرج في الليلة الصنبر^(٣) ،
عليه الشملة الفلوت^(٤) ، بين المزدتين على الجمل الثفال^(٥) . مُعتقل الرُمح
الخطي^(٦) . قالوا : إن هذا هو الجلد .

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن وهو على الصائف : أن استعن في
حربك بعمر بن معد يكرب ، وطليحة الأزدي ، ولا تؤلها من الأمر شيئاً ، فإن كل
صانع أعلم بصناعته .

وقال عمرو بن معد يكرب يصف صبره وجلده في الحرب :

أعاذل عُدني بزي ورُححي
أعاذل إنما أفنني شباي
مع الأبطال حتى سلّ جسمي
وَأُفْرَح عاتقي حَمْل النَجَادِ
وَكُلُّ مُقْلَص^(٧) سَلَس القِيَادِ
إِجَابَتِي الصَّرِيخُ إِلَى المُنَادِ

(١) الأغبار ، إما جمع غبر (بالضم) وهو بقية الحيض . فإنه من صفات الذم عندهم أن تحمل المرأة بالولد في آخر ليلة من ليالي الحيض . أو جمع غبر (بالكسر) وهو الحقد .

(٢) بيت على دمنة ، أي لا يبيت على حقد ، بل يعجل بأخذ ثاره شفاء لحقده .

(٣) الصنبر : الشديدة البرد .

(٤) الفلوت : التي لا تكاد تثبت على لباسها لأنها صغيرة أو ضيقة لا ينضم طرفاها ، فهي تنفلت عنه كل ساعة .

(٥) الثفال : البطيء . وهي صفة للدواب وغيرها : البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلا كرهًا
انظر/ المعجم الوسيط ص ٩٧ دار الدعوة - استانبول .

(٦) الخطي : منسوب إلى الخط وهي بلدة بالبحرين وينسب إليها أجود الرماح .

(٧) المقلص : الفرس الطويل القوائم المشرف المشمر .

وَبَقِيَ بَعْدَ حِلْمِ الْقَوْمِ حِلْمِي
وَمَنْ عَجِبَ عَجِبْتُ لَهُ حَدِيثُ
تَمْنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي أَبِي
تَمْنَانِي وَسَابِغَتِي قَمِيصِي
وَسَيْفٌ مِنْ لَدُنْ كَنْعَانَ عِنْدِي
فَلَوْ لَاقَيْتَنِي لِلْقَيْتِ لَيْثًا
وَلَا سَتَيْقَنْتِ أَنْ الْمَوْتَ حَقٌّ
أُرِيدُ حَيَاتِهِ وَيُرِيدُ قَتْلِي

وَمَنْ قَوْلُهُ فِي قَيْسِ بْنِ مَكْشُوحٍ الْمُرَادِي :

عَلَيْهِ جَالِسًا أَسْدُهُ
بِي أَخْلَصَ مَاءَهُ جَدَدُهُ (١)
لَيْثًا فَوْقَهُ لَبَدَهُ
صَلْخَدًا نَاشِرًا كَتَدَهُ (٢)
تَيْمَمَهُ فَيَقْتَصِدُهُ (٣)
فَيَخْضِمُهُ فَيَزْدَرِدُهُ (٤)
فَيَخْضِمُهُ فَيَزْدَرِدُهُ (٥)

تَمْنَانِي عَلَى فَرَسٍ
عَلَيَّ مَفَاضَةً كَالنَّهْرِ
فَلَوْ لَا قَيْتَنِي لِلْقَيْتِ
سَبَنْتِي ضَيْغَمًا هَصْرًا
يُسَامِي الْقِرْنَ إِنْ قِرْنٌ
فَيَأْخُذُهُ فَيُرْدِيهِ
فَيَدْمِغُهُ فَيَحْطِمُهُ

(١) قَتِيرُ الدَّرْعِ : مَسَامِيرُهَا الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ حَلَقَاتِهَا .

(٢) الْمَفَاضَةُ : الدَّرْعُ الْوَاسِعَةُ . وَالنَّهْيُ : الْغَدِيرُ مِنَ الْمَاءِ . وَالْجَدُّ : الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ . شَبَّ الدَّرْعُ بِالْغَدِيرِ فِي صِفَاتِهَا وَاطْرَادِهَا .

(٣) السَّبَنْتِي : الْجَرِيءُ الْمَقْدَامُ . وَالصَّلْخَدُ : الصَّلْبُ الْقَوِيُّ ، أَوْ الشَّهْمُ الْمَاضِي . وَالنَّاشِرُ : الْمُرْتَفِعُ .
وَالْكَتْدُ : مَجْتَمَعُ الْكَتِفَيْنِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْفَرَسِ أَوْ الْكَاهِلِ وَجَمْعُهُ أَكْتَادٌ وَكَتُودٌ . انْظُرِ الْمَعْجَمَ الْوَسِيطَ ص ٧٧٥ .

(٤) يَقْتَصِدُهُ ، أَيِ يَقْتُلُهُ .

(٥) يَدْمِغُهُ : يَصِيبُ دِمَاغَهُ . وَيَحْطِمُهُ : يَكْسِرُهُ . وَيَخْضِمُهُ : يَأْكُلُهُ . وَيَزْدَرِدُهُ : يَبْتَلَعُهُ .

المكيدة في الحرب

قال النبي ﷺ: «الحربُ خُدعة»^(١).

وقال المهلب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب، فإنها أبلغ من النجدة. وكان المهلب يقول: أناة في عواقبها فوت، خير من عجلة في عواقبها درك. وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمراً قط بحزم فلُمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أخذت أمراً قط وضيعت الحزم فيه إلا لُمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي.

وسُئل بعض أهل التمرُّس بالحرب: أي المكاييد فيها أحزم؟ قال: إذ كاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يُستنصح، ولا استنصاح لمن يُستغش، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر الموائمة إن قُرب، والغارة إن بُعد، والكمين إن انكشف^(٢)، والاستطراد إن ولى.

وقال المأمون للفضل بن سهل: قد كان لأخي رأي لو عمل به لظفر. فقال له الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لو كتب إلى أهل رُسان وطبرستان والرّي ودُباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة لم نخل نحن من إحدى خصلتين، إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه، فعصّانا أهل هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا؛ وإما قبلناه وأمضيّناه فلا نجد ما نُعطي منه من معنا [وتفرّق جُندنا ووَهَى أمرنا]. فقال الفضل: الحمد الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

(١) متفق عليه عن جابر وأبي هريرة.

(٢) انكشف، يريد انكشاف العدو عن موضعه، أي انهزامه.

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولى العزم، والجبناء من أولى الحزم فإن الجبان لا يألو برأيه ما بقى مُهْجَكُم، والشجاع لا يعدُّو ما يشد بصيرتكم. ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالَج، والحسام الوالج. وقيل: صالح سعيد بن العاص حصناً من حصون فارس على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غرة، فبعث إليه علجها: أن ابعث إلي رجلاً من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحدٌ غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله. فقال العلج: حدثني: هل في أصحابك أحدٌ مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا، إني هينٌ عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي؟ قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مَرَبَك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فخرج من عنده فمر برجل من نصارى غسان فعرفه فقال: يا عمرو، قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ماردك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تُعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت، أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن خل سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن، قال: لا عدتُ لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج، قال له: أنت هو! قال: نعم، على ما كان من غدرك.

وقال: ولما أتى بالهرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم وصاحب رستم^(١). فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نُصحاً لك في عاجلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقد ما أنا عليه

(١) رستم هذا هو ابن فرخزاد، وكان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان في وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون وقتل فيها رستم.

ولا أرغب في الإسلام رهبةً. فدعا له عمرُ بالسيف. فلما هم بقتله، قال: يا أمير المؤمنين، شربةٌ من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له عمرُ بشربة من ماء. فلما أخذها قال له: أنا آمنٌ حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمى بها وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال: صدقت، لك التوقفُ عنك وأنظر في أمرك، ارفعوا عنه السيف. فلما رُفع عنه قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وما جاء به حقٌ من عنده. قال عمر: أسلمت خير إسلام، فما أتحرك؟ قال: كرهتُ أن يظنَّ أيُّ إنسانٍ أسلمتُ جزعاً من السيف، وإيثاراً لدينه بالرهبة. فقال عمر: إنَّ لأهل فارس عُقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك؛ ثم أمر به أن يبرَّ ويكرم. فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به معنٌ بن زائدة في جُملَةِ الأسرى فأمر بقتلهم، فقال له أقتل الأسرى عطاشاً يامعن؟ فأمر بهم فسُقوا. فلما شربوا قال: أقتل أضيافك يامعن؟ فخلَّى سبيلهم.

وذكروا أنَّ مَلِكاً من ملوك العَجَم كان معروفاً ببعْدِ الغورِ وبِقِظَةِ الفِطْنَةِ وحُسن السياسة، وكان إذا أراد مُحاربةَ ملكٍ من الملوك وجَّه إليه مَنْ يَبْحَثُ عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يُظهر مُحاربتَه، فيكشِفُ عن ثلاث خصال من حاله، فكان يقول لعيونه: انظروا هل تَرِدُ على الملك أخبارُ رعيته على حقائقها أم يُخدَعُه عنها المنهى ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغنى في أي صنف هو من رعيته، أفيمن اشتدَّ أنفُه وقَلَّ شرهه؟ أم فيمن قَلَّ أنفُه واشتدَّ شرهه؟ وانظروا في أي صنفٍ رعيته القوامُ بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده؟ أم من شغله يومه عن غده؟ فإن قيل له لا يُخدَعُ عن أخبار رعيته، والغنى فيمن قَلَّ شرهه واشتدَّ أنفُه، والقوامُ بأمره من نظر ليومه وغده؛ قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن قيل له ضد ذلك؛ قال: نارُ كامنةٍ تنتظرُ مُوقد، وأضغان مُزْمَلَةٌ^(١) تنتظرُ مخرجاً، اقصدوا له فلا حينٌ أحيانٌ من سلامةٍ مع تضييع، ولا عدوٌ أعدى من أَمْنٍ أدَّى إلى اغترار.

(١) مزملة: مستورة.

أسامة بن زيد الليثي : قال : كان النبي ﷺ إذا غزا أخذ طريقاً وهو يريد أخرى ، ويقول : الحرب خدعة^(١) .

زياد عن مالك بن أنس قال : كان مالك عبد الله الخثعمي ، وهو على الصائفة يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل ، فيحمد الله تعالى ويثني عليه ، ثم يقول : إني داربٌ بالغداة إن شاء الله تعالى دَرَبٌ كذا . فتتفرق الجواسيسُ عنه بذلك . فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقاً أخرى . فكانت الروم تسميه الثعلب .

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح : إنه بلغني أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال : «اغزُوا بِسْمِ اللَّهِ ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً»^(٢) فإذا بعث جيشاً أو سرية فمرهم بذلك .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هَرَمًا ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الرَّحْفَانُ ، وعند حمة النهضات ، وفي شَنِّ الغارات .

(١) كان رسول الله ﷺ : إذا غزا ناحية ورأى بغيرها ، وكان يقول الحرب خدعة . رواه أبو داود عن كعب بن مالك .

(٢) رواه مسلم بنحوه عن بريدة بن الحصيب - وانظر الموطأ - كتاب الجهاد .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فأنكر ذلك ، ونهى عن قتل النساء والصبيان . / انظر الموطأ - كتاب الجهاد - النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو ص ٢٨٩ .

ولما وجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان^(١) إلى الشام شيعة راجلاً . فقال له يزيد : إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازل وما أنا براكب إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله ، ثم قال : إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له - يعني الرهبان - وستجد قوماً فحسوا عن أوساط رؤسهم الشعر ، فاضرب ما فحسوا عنه بالسيف . ثم قال له : إني موصيك بعشر : لا تغدر ولا تمثّل ، ولا تقتل هراً ولا امرأة ولا وليداً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلاً ، ولا تحرقن عامراً ولا تغل ولا تبخس^(٢) .

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة : سرّ على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة ، فإني لا آمن عليك الجولة . واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، ولا تقا تل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن في العرب غرة : وأقلّ من الكلام فإنها لك ما وعى عنك . واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سرائرهم . وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه .

كتب خالد بن الوليد إلى مرازية فارس مع ابن نفيلة الغساني : الحمد لله الذي فضّ حُزمتكم ، وفرّق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب ملككم ، وأذلّ عزكم . فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرهن ، واعتقدوا منّا الذمة ، وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذي لا إله إلا هو ، لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد : أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن

(١) هو أحد أمراء الأجناد الأربعة الذين عقد لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسيرهم لفتح الشام ، ولما فتحت دمشق أمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه على دمشق . انظر الذهبي / تاريخ الإسلام .

(٢) رواه مالك بنحوه عن يحيى بن سعيد . انظر الموطأ - كتاب الجهاد .

تقوى الله أفضل العُدَّة على العدو، وأقوى المَكيدة في الحرب. وأمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتِراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإنَّ ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدَّتهم، فإنَّ استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حَفْظَةَ من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرُّ منا فلن يسלט علينا وإن أسأنا، فربَّ قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل، لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس ﴿فجاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾^(١).
واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترَفَّق بالمسلمين في مسيرهم ولا تُحْشِمَهُمْ مسيراً يُتعبهم، ولا تُقَصِّرَ بهم عن منزل يَرْفُق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم يُنْقِصْ قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدوٍّ مُقيم حامي الأنفس والكُراع^(٢). وأقيم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم، ويُرْمُون أسلحتهم وأمتعتهم ونَحْ منازلهم عن قُرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حُرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولَّوهم خيراً. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرهم. وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عَيْنُ عليك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تُكثر الطلائع وتُبَث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم وموافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. وانتق للطلائع أهل الرأي

(١) سورة الإسراء آية ٥.

(٢) الكراع: الخيل.

والبأس من أصحابك، وتخبرهم سوابق الخيل. فإن لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلال، لا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايبت به أهل خاصتك. ولا تبغثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكايه. فإذا عاينت العدو فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنعه بك. ثم أذك أحراسك على عسكريك، وتيقظ من البيات جهدك. ولا تؤتي بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيّره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكُن كالمُضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلا تحفظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة، وكُن من احتيالك على عدوك أشدّ حذراً من احتيال عدوك عليك.

وكان زياد يقول لقواده: تجنبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء وبطون الأودية.

وأغزى الوليد بن عبد الملك جيشاً في الشتاء، فغنموا وسلموا، فقال لعباد^(١): يا أبا حرب، أين رأي زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تُصاب.

العُتبي قال: جاشت الروم وغزوا المسلمين براً وبحراً، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهده قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً لا أعصيه. قال: أردد على عهدي. ثم بعث إلى سفيان ابن عوف الغامدي فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه

(١) هو عباد بن زياد.

إماماً أمام الحزم، فإن خالفه خالفته. فقال معاوية: هذا الذي لا يكفكف من عجلة، ولا يدفع في ظهره من خور، ولا يضرب على الأمور ضربَ الجمل الثفال^(١). وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ لِمَالِكِ بْنِ عَوْفِ النَّصْرِيِّ قَائِدِ هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: يَامَالِكُ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ رَئِيسَ قَوْمِكَ، وَإِنْ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ. مَا لِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ، وَنَهَاقَ الْحَمِيرِ وَنُكَاءَ الصَّغِيرِ، وَبُعَارَ الشَّاءِ^(٢)؟ قَالَ: سَقَتْ مَعَ النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ. قَالَ: وَلَمْ ذَاكَ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلِّ رَجُلٍ أَهْلَهُ وَمَالَهُ لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ. فَأَنْقَضَ^(٣) بِهِ وَقَالَ: رَاعِي ضَأْنَ وَاللَّهِ؟ وَهَلْ يَرِدُ الْمُنْهَزِمُ شَيْءٌ؟ إِنَّهَا إِنْ كَانَتْ لَكَ لَمْ يَنْفَعَكَ إِلَّا رَجُلٌ بِسَيْفِهِ وَرُمَحِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ فُضِّحَتْ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ. وَيَحْكُ! إِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ بِتَقْدِيمِ الْبَيْضَةِ بِيضَةَ هَوَازِنَ^(٤) إِلَى نُحُورِ الْخَيْلِ شَيْئاً، أَرْفَعُهُمْ إِلَى مُتَمَنِّعٍ بِلَادِهِمْ، وَعُغْلِيَا قَوْمَهُمْ، ثُمَّ الْقَى الصَّبَاءَ^(٥) عَلَى مُتُونِ الْخَيْلِ. فَإِنْ كَانَتْ لَكَ لِحَقَّ بِكَ مَنْ وَرَاءَكَ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ، إِنَّكَ قَدْ كَبَّرْتَ وَذَهَلَ عَقْلُكَ. قَالَ دُرَيْدُ: هَذَا يَوْمٌ لَمْ أَشْهَدَهُ وَلَمْ يَقْتَنِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ^(٦)

(١) الثفال: البطيء من الدواب وغيرها انظر المعجم الوسيط ص ٩٧.

(٢) يعار الشاء: صوتها.

(٣) انقض به، أي زجره، من الإنقاض، وهو أن تلتصق لسانك بالحنك الأعلى ثم تصوت في حافتيه من غير أن ترفع طرفه عن موضعه. أو هو التصويت بالوسطى والإبهام كأنك تدفع بهما شيئاً، وذلك حين تنكر على غيرك قولاً أو عملاً.

(٤) بيضة هوازن: جماعتهم.

(٥) الصباء: جمع صابئ، يريد المسلمين، كانوا يسمونهم بهذا الاسم، أي خرجوا من دين الجاهلية إلى الإسلام.

(٦) الجذع: الشاب. والخبب والوضع: ضربان من السير.

أقود وطفاء الزرع كأنها شاة صدع^(١)
 وكان قتيبة بن مسلم يقول لأصحابه: إذا غزوتهم فأطيلوا الأظفار وقصروا
 الشعور، والخطوا الناس شزراً، وكلموهم رمزاً، واطعنوهم وخرزاً.
 وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر،
 وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.
 وكان سعيد بن زيد يقول لبنه: قصروا الأعنة واشحدوا الأسنة، تأكلوا القريب،
 ويرهبكم البعيد.

المحاربة عن العشيرة ومنع المستجير

قال عبد الملك بن مروان لجُعيل بن علقمة الثعلبي: ما مبلغ عزكم؟ قال: لم
 يُطمع فينا ولم يؤمن منا. قال: فما مبلغ حفظكم؟ قال: يدفع الرجل منا عمن
 استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: مثلك من يصف قومه.
 قال عبد الملك بن مروان لابن مطاع العنزى: أخبرني عن مالك بن مسمع. قال:
 له: لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب.
 قال عبد الملك: هذا والله السؤدد.
 قال: ولم يل قط مالك بن مسمع ولا أسهأ بن خارجة شيئاً للسلطان.
 وكانت العرب تمتدح بالذب عن الجار فيقولون: فلان منيع الجار، حامي الدمار.
 نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره، فسُمي مجير الجراد.
 وقال مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة ويصف مفاخر بني شيان ومنعهم
 لمن استجار بهم:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
 هم يمتنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل

(١) الوطفاء: الطويلة الشعر. والزرع: الشعر الذي فوق مربوط قيد الدابة. والشاة: الوعل وهو تيس
 الجبل. والصدع (محركة) من الأوعال والظباء والخمر: الفتى الشاب القوي.

وقال آخر :

هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّهُ كَثِيبَةٌ زُورٌ^(١) بَيْنَ خَافِيَتِي نَسْرٍ
وَذُكْرٍ أَنَّ مُعَاوِيَةَ وَلَّى كَثِيرَ بَنِ شِهَابِ الْمَذْحِجِيِّ خُرَاسَانَ ، فَاخْتَانَا مَا لَا كَثِيرًا ثُمَّ
هَرَبَ فَاسْتَرَعَ عِنْدَ هَانِيءَ بَنِ عُرْوَةَ الْمُرَادِيِّ : فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ ، فَهَدَرَ دَمَ هَانِيءَ .
فَخَرَجَ هَانِيءُ إِلَى مُعَاوِيَةَ فَكَانَ فِي جَوَارِهِ ، ثُمَّ خَضَرَ مَجْلِسَهُ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ ، فَلَمَّا نَهَضَ
النَّاسُ ثَبَّتَ مَكَانَهُ . فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عَنْ أَمْرِهِ ، فَقَالَ : أَنَا هَانِيءُ بْنُ عُرْوَةَ . فَقَالَ : إِنَّ
هَذَا الْيَوْمَ لَيْسَ بِالْيَوْمِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ أَبُوكَ :

أَرْجُلُ جُمَيْتِي وَأَجْرُ ذَيْلِي وَتَحْمِلُ شِكَايَ أَفْقٍ كُفِّتِ^(٢)
وَأَمْشِي فِي سَرَاةِ بَنِي غُطَيْفٍ إِذَا مَا سَاءَنِي أَمْرٌ أَبَيْتَ
قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ أَعَزَّ مِنِّي ذَلِكَ الْيَوْمَ . فَقَالَ : بِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَ :
بِالْإِسْلَامِ . قَالَ : أَيْنَ كَثِيرُ بْنُ شِهَابٍ ؟ قَالَ : عِنْدِي وَعِنْدَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ :
انْظُرْ إِلَى مَا اخْتَانَهُ ، فَخُذْ مِنْهُ بَعْضًا ، وَسَوِّغْهُ بَعْضًا ، وَقَدْ أَمَّنَاهُ وَوَهَبْنَاهُ لَكَ .

الشَّيْبَانِيُّ قَالَ : قَالَ سَعِيدُ بْنُ سَلَمٍ : أَهْدَرَ الْمُهْدِي دَمَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ كَانَ
يَسْعَى فِي فِسَادِ دَوْلَتِهِ وَجَعَلَ لِمَنْ دَلَّهُ عَلَيْهِ أَوْ جَاءَهُ بِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ . قَالَ : فَأَقَامَ
الرَّجُلُ حِينَئِذٍ مَتَوَارِيًا ثُمَّ إِنَّهُ ظَهَرَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ، فَكَانَ ظَاهِرًا كَغَائِبٍ ، خَائِفًا
مُتَرَقِّبًا . فَبَيْنَا هُوَ يَمْشِي فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا إِذْ بَصُرَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَعَرَفَهُ ،
فَأَهْوَى إِلَى مَجَامِعِ ثَوْبِهِ ، وَقَالَ : هَذَا بُغْيَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَأَمَكَنَ الرَّجُلُ مِنْ قِيَادِهِ ، وَنَظَرَ
إِلَى الْمَوْتِ أَمَامَهُ . فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى الْحَالَةِ إِذْ سَمِعَ وَقَعَ الْحَوَافِرِ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، فَالْتَفَتَ
فَإِذَا مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، أَجَرَنِي أَجَارَكَ اللَّهُ ؛ فَوَقَفَ وَقَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي
تَعَلَّقَ بِهِ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : بُغْيَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِي أَهْدَرَ دَمَهُ وَأَعْطَانِي لِمَنْ دَلَّ عَلَيْهِ

(١) كَثِيبَةُ الزُّورِ: أَيُّ مَجْتَمَعِهِ .

(٢) الْجَمَّةُ : مَا سَقَطَ مِنَ الشَّعْرِ عَلَى الْمُنْكَبِينَ . وَالشُّكَّةُ : السَّلَاحُ ، مِنْ دَرَعٍ وَمَغْفَرٍ وَسَيْفٍ وَرِمَحٍ .
وَيُرْوَى : «بَزَيَّ» . وَالْأَفْقُ : الْفَرَسُ الرَّائِعَةُ الْكَرِيمَةُ .
وَالْكُمَيْتُ : مِنَ الْكُمَةِ ، وَهِيَ لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْحُمْرَةِ . يَصِفُ نَفْسَهُ فِي صَدْرِ هَذَا الْبَيْتِ بِالنَّعْمَةِ ،
وَفِي الشُّطْرِ الثَّانِي بِشِدَّةِ الْبَاسِ .

مائة ألف . فقال : يا غلام ، انزل عن دابتك ، واحمل أخانا . فصاح الرجل : يا معشر الناس ، يُحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين ! قال له معن : اذهب فأخبره أنه عندي . فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب ، فدخل إلى المهدي فأخبره ، فأمر بحبس الرجل ، ووجه إلى معن من يحضر به . فأتته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه ، وقُرِبَت إليه دابته ، فدعا أهل بيته ومواليه فقال : لا يخلصنَّ إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف . ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي ، فلم يردَّ عليه . فقال : يا معن ، أتجير عليّ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونعم أيضاً ! واشتد غضبه . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، قتلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً ، ولي أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائي ، وحسن غنائي ، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا لي رجلاً واحداً استجار بي ؟ فأطرق المهدي طويلاً ، ثم رفع رأسه وقد سرَّي عنه ، فقال : قد أجزنا من أجرت . قال معن : فإن رأي أمير المؤمنين أن يصِلَه فيكون قد أحياه وأغناه فعل . قال : قد أمرنا له بخمسين ألف . قال يا أمير المؤمنين ، إن صَلَّات الخلفاء تكون على قدر جنایات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فأجزل له الصلة . قال : قد أمرنا له بمائة ألف . قال : فتعجلها يا أمير المؤمنين فإن خير البر عاجله . فأمر بتعجيلها . فدعا لأمر المؤمنين بأفضل الدعاء ، ثم انصرف ولحقه المال . فدعا الرجل ، فقال له : خذ صلتك ، والحق بأهلك ، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

الجبن والفرار

قال عمرو بن معد يكرب : الفَرَعات ثلاث : فمن كانت فَرَعتَه في رجليه ، فذلك الذي لا تُقله رجلاه ؛ ومن كانت فَرَعتَه في رأسه ، فذلك الذي يفر عن أبويه ، ومن كانت فَرَعتَه في قلبه ، فذلك الذي يُقاتل .

وقال الأحنف بن قيس : أسرع الناس إلى الفتنة أقلهم حياءً من الفرار . وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : إن الله خلق قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خَفَّت الريح خَفَّت معها ، فأفَّ للجبناء ! أفَّ للجبناء !

وقال الشاعر:

يُفِرُّ الجَبَانُ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَيَحْمِي شَجَاعُ الْقَوْمِ مِنْ لَا يُنَاسِبُهُ
وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
وقال خالد بن الوليد عند موته. لقد لقيتُ كذا وكذا زَحْفًا، وما في جِسْمِي
مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ، ثم هَانَذَا أَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ
الْعَيْرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ.
ومن أشعار الفرّارين الذين حَسَّنُوا فِيهَا الْفِرَارَ عَلَى قُبْحِهِ حَتَّى حَسُنَ، قَوْلُ الْفَرَّارِ
السُّلَمِيِّ^(١):

وَكَتَيْبَةٌ لَبَسَتْهَا بَكْتَيْبَةٌ حَتَّى إِذَا التَّبَسَّتْ نَفَضَتْ لَهَا يَدِي^(٢)
وَتَرَكْتَهُمْ تَقْصُ الرِّمَاحُ ظُهُورَهُمْ مِنْ بَيْنِ مَقْتُولٍ وَآخِرِ مُسْنَدٍ^(٣)
هَلْ يَنْفَعُنِي أَنْ تَقُولَ نَسَاؤُهُمْ وَقُتِلْتُ دُونَ رَجَالِهَا: لَا تَبْعِدِ
وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: مَا اعْتَذَرَ أَحَدٌ مِنَ الْفَرَّارِينَ بِأَحْسَنِ مِمَّا اعْتَذَرَ بِهِ
الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ حَيْثُ يَقُولُ:
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا مُهْرِي بِأَشْقَرِ مُزْبِدٍ^(٤)
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتَلْتُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَضُرُّ عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَفْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحَبَّةَ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ مُرْصِدٍ^(٥)
وهذا الذي سمعه رَبِّيلُ^(٦) فقال: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، حَسُنَ كُلُّ شَيْءٍ فَحَسُنَ حَتَّى
الْفِرَارُ.

(١) هُوَ حَيَّانُ بْنُ الْحَكَمِ، شَاعِرٌ مَخْضَرٌ صَحَابِي، وَكَانَ صَاحِبَ رَايَةٍ بَنِي سُلَيْمٍ يَوْمَ الْفَتْحِ.

(٢) لَبَسَتْهَا، أَيِ خَلَطَتْهَا. وَنَفَضَتْ هَا يَدِي، كُنَايَةٌ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهَا. وَالَّذِي فِي الْأَصُولِ.

(٣) تَقْصُ: تَكْسِرُ. وَالْمُسْنَدُ، الَّذِي أَمْسَكَ إِلَى مَا يَسْنَدُهُ وَبِهِ رَمَقٌ.

(٤) يُرِيدُ بِالْأَشْقَرِ: الدَّمُ. وَالْمُزْبِدُ: الَّذِي عُلَاهُ الزُّبْدُ.

(٥) يَقُولُ: أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ لَطْمَعِي فِي أَنْ يَعْقِبَ اللَّهُ لِي يَوْمًا يَرْصِدُ الشَّرَّ لَهُمْ وَيَمَكِّنُنِي مِنْهُمْ فَأَنْتَهَزَ الْفُرْصَةَ. وَالَّذِي فِي الْأَصُولِ: «مَفْسَدٌ» مَكَانَ «مَرْصَدٍ». وَهُوَ تَحْرِيفٌ. وَالَّذِي فِي نَهَايَةِ الْأَرْبِ: «سَرْمَدٌ».

(٦) رَبِّيلٌ، لَقَبُ لَمْلُوكِ سَجِسْتَانَ.

وقال آخر:

قامت تشجّعني هندٌ وقد علمت
لا والذي منّع الأبصارَ رؤيته
للحرب قومٌ أضل الله سعيهم
ولست منهم ولا أبغى فعالمهم
وقال محمود الوراق :

أيها الفارسُ المشيح^(١) المغيرُ
ليس لي قوة على رهج^(٢) الخيل
واستدارت رحي الحروب بقوم
حيث لا ينطق الجبان من الدعر
أنا في مثل ذا وهذا بليد
وقال أيمن بن خريم :

إن للفتنة ميطاً^(٣) بيناً
فإذا كان عطاء فأتهم
إنما يؤقدها جهالها

ومما يحتج به الفرّارون ما قاله صاحبُ كَليلة ودمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد
بُداً منه ، لأن النفقة فيه من النفس ، والنفقة في غيره من المال .

أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فنظمه في شعره حيث يقول :

كم بين قومٍ إنما نفقاتهم مألٌ وقومٌ يُنفقون نفوساً
وفرَّ عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث من الأزارقة وكان في عشرة آلاف ، وكان قد
بعث إليه المهلب : يا بن أخي ، خندق على نفسك وعلى أصحابك فإني عالم بأمر

(١) المشيح : الجاد الماضي في أموره .

(٢) الرهج : بفتح الحاء ، انظر مختار الصحاح ص ١٠٩ .

(٣) ميطا : أي صخباً وشدة .

الخوارج ولا تغتر. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهون عليّ من ضربة الجمل. فبيّته قطري صاحب الأزارقة، فقتل من أصحابه خمسمائة وفرّ لا يلوي على أحد.

وقال أبو دُلّامة: كنتُ مع مروان^(١) أيام الضحّاك^(٢) الحروري، فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم ثان فقتله، ثم ثالث فقتله فانقبض الناس عنه وجعل يدنو ويهدر كالفحل المغتلم. فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت عليّ الدنيا وسخوت بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه، فإذا عليه فرّو قد أصابه المطر فارمعل^(٣)، ثم أصابته الشمس فاففعل^(٤)، وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان. فلما رأيَ فهم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:

وخارجٍ أخرجهُ حُبُّ الطمع فرّ من الموت وفي الموت وقع
من كان ينوي أهله فلا رجع

فلما رأيته قنّعت رأسي ووليت هارباً، ومروان يقول: من هذا الفاضح؟ لا يفتكم، فدخلت في غمار الناس.

وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدو؟ قال: وكيف يكونون لي عدواً وما أعرفهم ولا يعرفوني؟

وقيل لآخر: ألا تغزو العدو؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أحب إليه ركضاً.

ومما قيل في الفرّارين والجنباء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يُعيرُ الحارث بن هشام بفراره يوم بدر.

إن كنتِ كاذبة الذي حدّثني فنجوت منجي الحارث هشام

(١) هو مروان بن محمد.

(٢) هو الضحّاك بن قيس الشيباني الحروري.

(٣) ارمعل: ابتل.

(٤) أففعل: تقبض.

ترك الأحبة لم يُقاتل دُونهم
ملأت به الفرجين فارمَدَت به
وقال بعض العراقيين في رجل أكل جبان :

إذا صَوَّت العُصفور طار فؤاده
وليس يُعاب الشجاع والبُهمة^(١) البطل بالقرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة،
وقليلة لا عادة، كما قال زُفر بن الحارث، وفر يوم مرج راهط^(٢) عن أبيه وأخيه فقال :
أيذهب يوم واحد إن أسأته
ولم تُرمني زلة قبل هذه
وفر عمرو بن معد يكرب من عباس بن مرداس السلمي، وأسر أخته ربحانه.
وفيها يقول عمرو:

أمن ربحانة الداعي السميع
وفر عن بني عبس، وفيهم زهير بن جذيمة العبسي، وولده شأس بن زهير، وقيس
ابن زهير، ومالك بن زهير فقال فيهم :
أجاعلة أم الثوير^(٣) خزاية
لقيت أبا شأس وشأساً ومالكا
لقونا فضموا جانبينا بصادق
ولما دخلنا تحت فيء رماحهم
وليس يُعاب المرء من جبن يومه
عليّ فراري إذ لقيت بني عبس
وقيساً فجاشت من لقائهم نفسي
من الطعن مثل النار في الخطب اليس
خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس
إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس

(١) الطمرة: الأنثى من الجياد، وهي المستفزة للوثب والعدو؛ وقيل: هي الطويلة القوائم. وقيل
الطمير: الفرس الجواد الشديد العدو، انظر المعجم الوسيط ص ٥٦٥.

(٢) ملأت به الفرجين، كناية عن سرعة الفرس في نقل قوائمها حتى لا تترك سعة بينها. وأرمدت:
أسرعت.

(٣) البهمة (بالضم): الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

(٤) مرج راهط: بنواحي دمشق.

(٥) أم الثوير: هي امرأة عمرو بن معد يكرب. وقيل هي: أم الحصين.

وقال أيضا:

ولقد أجمع رجلي بها ولقد أعطفها كارهة
 حذر الموت وإني لفروء كل ما ذلك مني خلق
 حين للنفس من الموت هرير^(١) وابن صبح سادراً^(٢) يوعدني
 وبكل أنا في الروع جدير وقال الحارث لامرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يحذ حربة يوم فتح مكة، فقالت
 ما له في الناس ما عشت مجير له: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتها لمحمد وأصحابه. فقالت: ما أرى يقوم لمحمد
 وقال الحارث لامرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يحذ حربة يوم فتح مكة، فقالت وأصحابه شيء! قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم أنشأ يقول:
 إن يقبلوا اليوم فما بي عليه هذا سلاح كامل وأله^(٣)
 وذو غرارين سريع السلة

فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة^(٤) انهزم الرجل، فلامته امرأته فقال:
 إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ قر صفوان وفر عكرمه^(٥)
 وأبو يزيد^(٦) قائم كالموتمة ولحقتنا بالسيوف المسلمه
 يفلقن كل ساعد وججمه ضربا فلا تسمع إلا غمغمه
 هم نهيت^(٧) خلفنا وهمهمه لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه
 وكان أسلم بن زُرعة وجهه عبيد الله بن زياد لحرب أبي بلال الخارجي في ألفين،

(١) الهريز: الصياح، وهريز الكلب صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد انظر الرازي - المصدر السابق ص ٢٨٩.

(٢) سادرا، أي لا يبالي ما صنع.

(٣) الآلة: الحربة لها سنان طويل.

(٤) الخندمة: جبل دخل منه النبي ﷺ مكة يوم الفتح.

(٥) يريد: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وكانا هما وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا.

(٦) أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو خطيب قريش. والموتمة: المرأة مات زوجها وترك لها أيتاما.

(٧) النهيت: الزئير والزحير.

وأبو بلال في أربعين رجلاً، فشدوا عليه شدة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه؛ فلما دخل على ابن زياد عنقه في ذلك وقال: أتمضي في ألفين وتنهزم عن أربعين! فخرج عنه وهو يقول لأن يذمني ابن زياد حياً، خير من أن يمدحني ميتاً. وفي رواية أخرى: لأن يشتمني الأمير وأنا حي، أحب إلي من أن يدعو لي وأنا ميت.

ومثل ذلك قول عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي وكان فر يوم الحرّة من جيش مسلم بن عقبة، فلما كان أيام حصار الحجاج بمكة لعبد الله بن الزبير جعل يُقاتل أهل الشام ويقول:

أنا الذي قررت يوم الحرّة والشيخ لا يفر إلا مرّة
فاليوم أجزى فرّة بكره لا بأس بالكثرة بعد الفره
فلم يزل يقاتل حتى قُتل.

وأحسن ما قيل في الفرار كلّ ما قال قيس بن الخطيم:

إذا ما قررنا كان أسوأ فرارنا صدود الحدود وازورار المناكب
أجالدهم يوم الحديقة^(١) حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق^(٢) لاعب

وفرّ عتبية بن الحارث بن شهاب يوم ثبرة^(٣) عن ابنه حزرة وقال:

ياحسرتنا لقد لقيت حسره يالتميم غشيتني غمره
نعم الفتى غادرته بشره نجيت نفسي وتركت خزره
هل يترك الحرّ الكريم بكره

(١) الحديقة: بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة وقاف وهاء بلفظ واحدة الحقائق، وهي البساتين.

والحديقة: بستان كان بقنا حجر من أرض اليمامة لمسيلمة الكذاب. والحديقة أيضاً: قرية من أعراض المدينة في طريق مكة كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام وإياها أراد يس بن الخطيم. انظر ياقوت الحموي - معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٢ - دار صادر - بيروت.

(٢) المخراق: منديل أو نحوه يلوى فيضرب به، أو يُلف فيفزع به.

(٣) ثبرة: بالفتح اسم ماء في وسط واد في ضبة، يقال لذلك الوادي الشواجن انظر ياقوت - المصدر السابق - ج ٢ ص ٧٢.

وفر أبو خراش الهذلي من فائد وأصحابه ورصدوه بعرفات، فقال:
 رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُرْعَ فقلتُ - وَأَنْكَرْتُ الْوَجُوهَ - هُمْ هُمْ
 وقلت وقد جاوزت أصحاب فائد أَعْجَزْتُ أُولَى الْخَيْلِ أَمْ أَنَا أَحْلَمُ
 فَلَوْلَا أَدْرَاكَ الشَّدَّ قَامَتْ حَلِيلَتِي تَخَيَّرَ مِنْ خُطَابِهَا وَهِيَ أَيَّامُ
 وَلَوْلَا أَدْرَاكَ الشَّرَّ أَتَلَفْتُ مُهْجَتِي وَكَادَ خِرَاشٌ يَوْمَ ذَلِكَ يُيْتِمُ
 وفر خبيب بن عوف يوم مرداء هجر من أبي فُديك فقال:
 بَدَّلْتُ لَهُمْ يَأْقُومَ حَوْلِي وَقُوتِي وَنُصَحِي وَمَا ضَمَّتْ يَدَايَ مِنَ التَّبَرِ
 فَلَمَّا تَنَاهَى الْأَمْرُ بِي مِنْ عَدُوِّكُمْ إِلَى مُهْجَتِي وَلَيْتُ أَعْدَاءَكُمْ ظَهَرِي
 وَطَرْتُ وَلَمْ أَحْفِلْ^(١) مَلَامَةً عَاجِزَ يُقِيمُ لِأَطْرَافِ الرُّدَيْنِيَّةِ^(٢) السُّمَرِ
 فَلَوْ كَانَ لِي رُوحَانٌ عَرَّضْتُ وَاحِدًا لِكُلِّ رُدَيْنِي وَأَبْيَضَ ذِي أَثَرٍ^(٣)
 وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تَقَدَّمَ . فَأَنْشَأَ يَقُولُ:
 وَقَالُوا تَقَدَّمَ قُلْتُ لَسْتُ بِفَاعِلٍ أَخَافُ عَلَى فَخَّارَتِي أَنْ تُحَطَّأَ
 فَلَوْ كَانَ لِي رَأْسَانِ أَتَلَفْتُ وَاحِدًا وَلَكِنَّهُ رَأْسٌ إِذَا رَاحَ أَعْقَمَا
 وَلَوْ كَانَ مُبْتَاعًا لَدَى السُّوقِ مِثْلُهُ فَعَلْتُ وَلَمْ أَحْفِلْ بِأَنْ أَتَقَدَّمَ
 فَأَوْتَمَ أَوْلَادًا وَأَرْمِلَ نِسْوَةً فَكَيْفَ عَلَى هَذَا تَرَوْنَ التَّقَدُّمَ
 وقال كعب بن زهير:
 بُخْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنًا مِنْ عَدُوِّكُمْ لَبِئْسَتِ الْخَلَّتَانِ: الْبُخْلُ وَالْجُبْنُ

(١) لم أحفل: لم أبال.

(٢) الردينية: نسبة إلى ردينة، امرأة كانت تثقف الرماح.

(٣) الأثر: فرند السيف وجوهره.

فضائل الخيل

قال النبي ﷺ في صفة الخيل: «أعرافها أذفاؤها، وأذناها مذاها، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١).

وقال النبي ﷺ: «عليكم بإنات الخيل، فإن بطونها كنز، وظهورها حرز، وأصحابها معانون عليها»^(٢).

وسأل رجل النبي ﷺ فقال: إني أريد أن أشتري فرساً أعده في سبيل الله. فقال له: اشتري أدهم؛ أو كميثاً أقرح أرثم^(٣) أو مُحَجَّلًا مُطَلَقَ اليمين، فإنها ميامن الخيل^(٤).

وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال: فرس يتبعها فرس في بطنها فرس.

صفة جياذ الخيل

كان رسول الله ﷺ يَسْتَحِبُّ من الخيل الشُّقْرَ^(٥).

(١) روى البخاري ومسلم عن عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم». والمراد بالناصية هنا الشعر المسترسل على الجبهة.

(٢) الحديث لم أقف عليه.

(٣) الأقرح، من القرع (بالتحريك) وهو دون الغرة، وهو كل بياض كان في جبهة الفرس ثم انقطع قبل أن يبلغ المرسن (الأنف). والأرثم: من الرثم (بالتحريك) وهو كل بياض أصاب الجحفلة (الشفة) العليا، قل أو كثر، إلى أن يبلغ المرسن.

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي قتادة بنحوه وصححه الألباني انظر صحيح الجامع ٣٢٦٨.

(٥) رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود بلفظ «يُمن الخيل في الشُّقْر» وصححه الألباني/ صحيح الجامع ٨٠١٨ وفي هذه الأحاديث استحباب رباط الخيل واقتنائها للجهاد ضد أعداء الله وأن فضلها وخيرها والجهاد باق إلى يوم القيامة.

وسأله رجل: أي المال خير؟ قال: «سكة مأبورة، ومهرة مأمورة»^(١).
وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال^(٢) من الخيل^(٣).
وقالوا: إنها سُميت خيلاً لاختيالها.

ووصف أعرابي فرساً فقال: إذا تركته نعس، وإذا حرّكته طار.
وأرسل مسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً. فقال له: لا أعلم لي
بالخيل. فقال: أأست صاحب قنص؟ قال: بلى. قال: انظر كل شيء تستحسنه في
الكلب فاطلبه في الفرس. فأبى بخيل لم يكن في العرب مثلاً.
وقال بعض الضّبيّين في وصف فرس:

مُتَقَاذِفٍ عِبل الشّوى شَنِج النّسا سَبَّاقٌ أُنْدِيَةِ الجِيَادِ عَمِيثِلٌ^(٤)
وَإِذَا تَعَلَّلَ بِالسَّيَاطِ جِيَادُهَا أَعْطَاكَ نَائِلَهُ وَلَمْ يَتَعَلَّلْ
سأل المهدي مطر بن درّاج عن أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلت
نافر، وإذا استدبرته قلت زاجر^(٥)، وإذا استعرضته قلت زافر^(٦). قال: فأبى هذه
أفضل؟ قال: الذي طرفه إمامه، وسوطه عنانه.

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن سويد بن هيرة عن النبي ﷺ قال: «خير مال المرء له مهرة مأمورة
أو سكة مأبورة». انظر المسند ج ٣ ص ٤٦٨.

السكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة. والمأمورة: الكثيرة النسل والنتاج يقال:
أمرهم الله فأمرؤا، أي كثروا. يريد: خير المال زرع أو نتاج.

(٢) الشكال: أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة، أو عكس ذلك وقيل بياض الرجل اليسرى
واليد اليسرى.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب ما يكره من صفات الخيل (١٨/١٣) نووي.

(٤) المتقاذف: السريع الركض. وعبل الشوى: غليظ القوائم. والنسا: عرق من الورك إلى الكعب.
وشنّج النسا: متقبضة، وهو مدح للفرس، لأنه إذا سنج نسا لم تسترخ رجلاه. والعميثل:
النشيط.

(٥) يريد أنك إذا استدبرته رأيت زاجر الكفل، أي ممتلئة، وذلك مما يمدح في الخيل.

(٦) لعل المراد بالزافر: العظيم الزفرة (بالضم)، وهي وسط الفرس؛ فما يمدح في الفرس أن يكون عظيم
الجوف مجفّر الجنين.

وقال آخر^(١): الذي إذا مشى ردى^(٢)، وإذا عدا دحا^(٣)، وإذا استقبل ألقى، وإذا استدبر جبي^(٤)، وإذا استعرض استوى.

وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصع بن صوحان^(٥): أي الخيل أفضل؟ قال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث. قال: فسر لنا. قال: أما الطويل الثلاث، فالأذن والعنق والحزام، وأما القصير الثلاث، فالصلب والعسيب والقصيب. وأما العريض الثلاث، فالجبهة والمنخر والورك؛ وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب: كيف معرفتك بعرب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعرضت عليه. فقال: قدموا إليها الماء في التراس^(٦)، فما شرب ولم يكتف^(٧) فهو من العرب، وما ثنى سنبكه فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أن عمر شك في العتاق والمهجن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره. فأمر سلمان بطست من ماء فوضع بالأرض، ثم قدم إليه الخيل فرسا فرسا، فما ثنى سنبكه وشرب هجنه، وما شرب ولم يثن سنبكه عرب^(٨).

(١) هو ابن أقيصر، أحد بني أسد بن خزيمة. (انظر الأمازي وعيون الأخبار).

(٢) الرديان: أن يرجم الأرض رجماً بين المشي الشديد والعُدو.

(٣) إذا كان الفرس في سيره يرمي بيده لا يرفع سنبكه عن الأرض قيل: يدحودحوا.

(٤) جبي: انكب على وجهه.

(٥) نسب هذا الكلام أيضاً لأيوب بن القرية، وقد سألته الحجاج عن صفة الجواد من الخيل. انظر نهاية الأرب ج ١٠ ص ٢٠.

(٦) التراس: جمع ترس، وهو صفحة مستديرة تحمل للوقاية من سيف ونحوه.

(٧) كتف الفرس: ارتفعت فروع كتفه.

(٨) وذلك لأن في أعناق المهجن قصراً، فهي لا تنال الماء في تلك الحال حتى تثني سنانها. وأعناق العتاق طوال.

وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس:

بكل كُميتٍ جَوَّزه نصف خلقه أقب طُوالٍ مُشرف في الحوارك^(١)
وقال زهير:

ومُلجَمنا ما إن ينال قذالُه ولا قَدماه الأرض إلا أنامله^(٢)
وقال آخر:

له ساقا ظليم خا ضب فُجىء بالرُعْب^(٣)
حديد الطرف والمنك سب والمُرْقُوب والقلب
وقال آخر^(٤):

هَريتُ^(٥) قصير عذاب اللجام أسيل طویل عذار الرسن^(٦)
لم يُرد بقوله: «قصير عذار اللجام» قصر خده، وإنما أراد طول شقِّ الفم.
وأراد بطول عذار الرسن: طول الخد.
وقال آخر:

بكل هريت نقي الأديم طويل الحزام قصير اللَّب^(٧)
وقال أبو عبيدة يُستدل على عتق الفرس برقة جحافل^(٨) وأرنبته، وسعة منخريه،

(١) الكُميت: من الكمته، وهي لون بين السواد والحمرة. وجوزه: وسطه. والأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن. والطوال: الطويل. والحوارك: أعالي الكاهل.

(٢) القذال من الفرس: معقد العذار خلف الناصية.

(٣) الظليم: ذكر النعام. والحاضب: الذي اغتلم فاحمرت ساقاه. وقيل: هو الذي أكل الربيع فاحمرت ساقاه.

(٤) هو تميم بن أي بن مقبل، أحد شعراء الجاهلية، مضمم عاش مائة وعشرين سنة.

(٥) الهريت: الواسع الشدين الطويل شقِّ الفم.

(٦) الرسن: الزمام.

(٧) لبب الفرس: منخره.

(٨) الجحافل: جمع جحفل، وهي الشفقة.

وعُري نواهاقه^(١)، ودقة حقويه وما ظهر من أعالي أذنيه، ورقه سالفتيه وأديمه، ولين شعره. وأبين من ذلك كله لين شكير^(٢) ناصيته وعُرفه. وكانوا يقولون. إذا اشتد نفه، ورحب مُتنفسه، وطال عُنقه، واشتد حَقوه، وانهرت^(٣) شدقه، وعظمت فخذاه، وانشبخت أنساؤه^(٤)، وعظمت فُصوصه^(٥)، وصَلبت حوافره ووقُحت: ألحق بجياد الخيل. قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المُقرَف؟ قال: نعم؛ أما الكريم، فالجواد الجيد الذي نهز نهز العير^(٦)، وأنف تأنيف^(٧) السير، الذي إذا عدا أسلهب، وإذا أقبل أجعلب، وإذا انتصب اتلأب^(٨). وأما المُقرَف: فإنه الذَّلُول الحجة^(٩)، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال: أمسكني، وإذا أمسكته قال: أرسلني. وقال الشاعر في وصف فرس: وأحمر كالديباح أمّا سهاؤه فريّا وأما أرضه فمحول

- (١) يريد بالنواحق: الناهقين، وهما العظمان الشاحصان في مجرى الدمع.
- (٢) الشكير: ما أطاف بالناصية من قصير الشعر، وهو ما يستدل به على العتق.
- (٣) انهرت: اتسع.
- (٤) الشبخ: تقلص الجلد والأصابع وغيرهما؛ يقال: فرس شبخ النساء، منقبضه، وهو مدح له. والنساء (بالفتح): عرق من الورك إلى الكعب.
- (٥) الفصوص: جمع فص، وهو ملتقى كل عظمين.
- (٦) يقال: نهزت الدابة، إذا نهضت بصدرها للسير. والعير: الحمار الوحشي.
- (٧) المؤنف: المحدد من كل شيء؛ ومنه سبر مؤنف، أي مقدود على قدر واستواء. يريد أن الفرس قد سوى خلقه على قدر كما يسوى السير المقدود من الجلد.
- (٨) اسلهب: مضى، واجلعب: امتد على الأرض. واتلأب: رفع صدره ورأسه.
- (٩) حجة الفرس: ما أشرف على صفاق البطن من وركيه. وهو الذي ليس لحجته إشراف فهي ملساء مستوية. وهذا هو المراد أيضا بكلمة «ذلّول».

قوله ساءه : أعلاه ؛ وأرضه : أسفله . يريد قوائمه .

وللطائي نظير هذا حيث يقول :

مُبْتَل مَتْنٌ وَصَهْوَتَيْنِ إِلَى حَوَافِرِ ضَلْبَةٍ لَهُ مُلْسٌ^(١)
فَهُوَ لَدَى الرَّوْعِ وَالْحَلَاثِبِ^(٢) ذُو أَعْلَى مُنْدَى وَأَسْفَلِ يَيْسٍ
أَوْ أَدْهَمَ فِيهِ كَمَتَّةٌ أَمَمٌ^(٣) كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْفَلَسِ
صَهْصَلَقٌ فِي الصَّهِيلِ تَحْسَبُهُ أَشْرَجَ حُلُقُومُهُ عَلَى جَرَسٍ^(٤)
وَقَالَ حَبِيبٌ أَيْضاً يَصِفُ فَرَساً أَهْدَاهُ إِلَيْهِ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ الْكَاتِبُ :

مَا مُقَرَّبٌ^(٥) يَخْتَالُ فِي أَشْطَانِهِ مَلَأَنَ مِنْ صَلَفٍ بِهِ وَتَلْهَوْقٍ^(٦)
بِحَوَافِرِ حُفَرٍ وَضَلَبٍ ضَلَبٌ وَأَشَاعَرَ شُعْرَ وَحَلَقٍ أَحْلَقٍ^(٧)
وَبَشْعَلَةٍ تَبْدُو كَأَنَّ حُلُولَهَا فِي صَهْوَتَيْهِ بُدُو شَيْبِ الْمَفْرَقِ^(٨)
ذُو أَوْلَقٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَإِنَّمَا مِنْ صِحَّةٍ إِفْرَاطُ ذَاكَ الْأَوْلَقِ^(٩)
تُغَرِّى الْعَيُونُ بِهِ وَيُفْلَقُ شَاعِرٌ فِي نَعْتِهِ عَفْواً وَلَيْسَ بِمُفْلَقٍ^(١٠)

(١) يصف الفرس بأنه ريان الأعلى ظمان الأسفل .

(٢) الحلائب : جمع حلبة ، وهي الخيل تجتمع للسباق .

(٣) الأمم : الشيء بين الشيئين .

(٤) صهصلق : شديد الصهيل . وأشرج : خيط .

(٥) المقرب من الخيل : الذي يديني ويقرب ويكرم .

(٦) الأشطان : الحبال ؛ الواحد : شطن . والتلهوق : المبالغة في العجب والاختيال .

(٧) حفر ، أي قوية تحفر الأرض من صلابتها . والصلب (بالضم) : الظهر . وصلب : قوي . والأشاعر :

ما استدار بالخافر من منتهى الجلد . وشعر : شديد وأحلق : واسع .

(٨) الشعلة : البياض .

(٩) الأولق : الجنون . يريد وصفه بشدة النشاط .

(١٠) مفلق : يحىء بما يعجب . يقول : إن هذا الفرس يجيد في وصفه من ليس بمجيد من الشعراء ، لأنه

ينظر منه إلى ما يروق ويعجب .

بُمَصَّعَد من حُسْنِه ومُصَوَّب
 قد سالت الأوضاح^(١) سيلَ قرارة
 صافي الأديم كأنما ألبسته
 مُسَوَّدَ شطر مثلما أسودَّ الدُّجى
 فكأن فارسَه يُصَرَّف إذ بدا
 إمليسه إمليده لو عُلِّقت
 يرقى وما هو بالسليم ويغتدى
 وقال أبو سويد: شهد أبو دُلْف وقعة البَذ^(٢) وتحتَه فرس أدهم، وعليه نضح الدم.
 فاستوقفه رجل من الشعراء^(٣)، وأنشد:
 كم ذا تُجرعه المَنون ويسلمُ
 لو يستطيع شكّا إليك الأدهمُ

- (١) مصعده: أعلاه ومصوبه: أسفله. ومجمعه: وسطه. ومفرقه، كقوائمه وأذنيه ونحوهما. يقول: إن في الفرس أشياء يحمد اجتماعها فقد جمعت وأشياء يحمد افتراقها قد فرقت.
- (٢) الأوضاح: جمع وضع (بالتحريك): البياض.
- (٣) المهرق: ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه. يقول: إنه مقسوم على شعرة سوداء وشعرة بيضاء.
- (٤) يصف الفرس بينوته للصباح في بياضه.
- (٥) إمليسه إمليده: أملسه أملده، أي لبن ناعم. والعين: يريد بها التي تصيب الإنسان. وغيره من الحيوان، ويدل على ذلك قوله: «يرقى... إلخ» في البيت الآتي. يصفه بالملاسة والنعمومة لأنها تدل على السلامة من العيوب.
- (٦) يرقى، من الرقية. والسليم: الذي قد لدغ. قال التبريزي: «هذا الفرس يرقى لكرامته عند أهله». والأروع: الشجاع. والمملق، أي الذي لا سلاح له. يقول: إذا طلب الأعداء هذا الفارس كان الفرس سلاحاً له، كما أنه إذا طلب هو عدوه أدركه.
- (٧) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخزمي في أيام المعتصم. وقد ذهب إليه أبو دلف في جملة من كان مع الأفشين حيدر بن كاوس لمحاربته.
- (٨) هو إسحاق بن خلف البهراني.

نَمَقْ يُنَمِّقْهُ الْحُسَامُ الْمَخْذَمُ^(١)
وَكَأَنَّهُ بُعْرَى الْمَجْرَةَ مُلْجَمُ^(٢)
شُقْرَاءُ كَاسِرَةٌ طَوَتْ مَا تَطْعَمُ
لَا بَلَّ يَفُوتُ الرِّيحَ فَهُوَ مُقَدَّمُ
وَاللُّونُ أَدهُمُ حِينَ ضَرَجَهُ الدَّمُ

وَيَخْضَرُ حِينَ كَلِمَا بَلَّهَا الرِّشْحُ
وَتَسْبَحُ فِي الْبَرِّ الَّذِي مَا بِهِ سَبَحُ

كَأَنَّ آذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامِ
هُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فَرَسًا،

يَجْرِي إِلَيْهَا خَائِفٌ أَوْ مُرْتَجِي
أَمْسُوا كَوَاكِبَ أَشْرَقَتْ فِي مَذْجِ
تَعْلُو الْبُيُوتَ بِفَضْلِهَا لَمْ يُجْجِجْ
أَحْشَاؤُهُ طَيَّ الرَّدَاءِ الْمُدْرَجِ
مِنْهُ بِمِثْلِ الْكُوكَبِ الْمُتَأَجِّجِ
بَدَمٍ فَمَا تَلْقَاهُ غَيْرَ مُضْرَجِ

فِي كُلِّ مَنْبَتٍ شَعْرَةٌ مِنْ جِلْدِهِ
وَكَأَنَّمَا عَقَدَ النُّجُومُ بِطَرْفِهِ
وَكَأَنَّهُ بَيْنَ الْبَوَارِقِ^(٣) لِقْوَةٌ^(٤)
مَا تُدْرِكُ الْأَرْوَاحَ أَدْنَى سِيرِهِ
رَجَعَتْهُ أَطْرَافُ الْأَسْنَةِ أَشْقَرًا
قَالَ: فَأَمَرَ لَهُ بَعْشَرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ.

وَمَنْ قَوْلُنَا فِي وَصْفِ الْفَرَسِ:
وَمُقَرَّبَةً يَشْقُرُ فِي النَّقْعِ كَمَتْهَا^(٥)
تَطِيرُ بِلَا رِيَشٍ إِلَى كُلِّ صِيْحَةٍ
وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ الرَّقَّاعِ:

يَخْرُجْنَ مِنْ فُرْجَاتِ النَّقْعِ دَامِيَةً
وَطَلَبَ الْبُحْتَرِيُّ الشَّاعِرُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ
وَوَصَفَ لَهُ أَنْوَاعًا مِنَ الْخَيْلِ فِي شَعْرِهِ فَقَالَ:

لَا كَلَفْنَ الْعَيْسَ أَبْعَدَ هِمَّةٍ
وَالْبَيْتُ لَوْلَا أَنْ فِيهِ فَضِيلَةٌ
فَأَعْنِ عَلَى غَزْوِ الْعَدُوِّ بِمُنْطَوٍ
إِمَّا بِأَشْقَرِ سَاطِعٍ أَغْشَى الْوَعْيِ
مُتَسَرِّبِلٍ شَيْئَةً طَلَّتْ أَعْطَافُهُ

(١) المخذم: القاطع.

(٢) يشير بهذا البيت إلى أنه مرتفع الرأس لا يخفضه.

(٣) البوارق: السيوف.

(٤) كذا في أكثر الأصول. واللقوة: أنثى العقبان.

(٥) المقربة من الأفراس: التي تدني وتقرب وتكرم، ويفعل ذلك بالإناث لئلا يقرعها فحل لئيم.

وكمتمها: من الكمته، وهي الحمرة يخالطها سواد.

أو أدهم صافي الأديم كأنه
ضرم يهيج السوط من شؤبويه
خفت مواقع وطئه فلو أنه
أو أشهب يفتي يضيء وراءه
تخفى الجحول ولو بلغن لبانه
أوفى بعرف أسود متفرّد
أو أبلق ملأ العيون إذا بدا
جدلان تحسده الجياد إذا مشى
وعريض أعلى المتن لو عليته
خاضت قوائمه الوثيق بناؤها
ولأنت أبعد في السباحة همّة
وأول من شبه الخيل بالطبي والسرّحان والنعامه وتبعه الشعراء وحدّوا حدّوه وعلى
مثاله، امرؤ القيس بن حجر، فقال في الفرس:

تحت الكميّ مظهر برندج^(١)
هيج الجنائب من حريق العرفج^(٢)
يجرى برملة عالج لم يرهج^(٣)
متن كمتن اللجة المترجرج
في أبيض متألّق كالدمليج^(٤)
فيما يليه وحافر فيروزجي
من كل لون معجب بنموذج
عنقا^(٥) بأحسن حلة لم تنسج
بالزئبق المنهال لم يترجرج
أمواج تحنيب^(٦) بهن مدرج
من أن تضن بموكف^(٧) أو مسرج
وأول من شبه الخيل بالطبي والسرّحان والنعامه وتبعه الشعراء وحدّوا حدّوه وعلى

(١) البرندج: السواد يسود به الخف، أو هو الزاج يسود به.

(٢) الشؤبوب: شدة العدو. والجنائب: جمع جنوب، وهي من الرياح: التي تقابل الشمال. والعرفج: ضرب من النبات سهلى طيب الريح، ولهبه شديد الحمرة، ويبالغ بحمرته، فيقال: كأن شعره ضرام عرفجة.

(٣) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، ولم يرهج: أي لم يثر الغبار من خفة وطئه.

(٤) اللبان: الصدر. والدمليج: حلى يلبس في المعصم.

(٥) العنق: ضرب من السير فسيح سريع.

(٦) التحنيب: احديداب في وظيفي يدى الفرس، ويوصف صاحبه بالشدة؛ وقيل. هو بُعد ما بين الرجلين من غير فجج، وهو مدح.

(٧) الموكف: الذي وضع عليه الوكاف، وهو البرذعة.

له أَيْطَلًا ظَبِي وَسَاقًا نَعَامَةً وإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِبُ تَنْفُلٍ^(١)
كَأَنَّ عَلَى الْمَتْنَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكُ عُرُوسٍ أَوْ صَلَايَةِ حَنْظَلٍ^(٢)
مَكْرًا مَفْرًا مُقْبِلَ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخَرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عُلٍّ^(٣)
دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ^(٤) تَتَابُعِ كَقَفِيهِ بِخَيْطِ مُوَصَّلٍ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَتَنَزَّلِ^(٥)

فَأَخَذَتِ الشَّعْرَاءُ هَذَا التَّشْبِيهَ مِنْ أَمْرِئِ الْقَيْسِ فَحَذَّوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ طُفَيْلُ الْخَيْلِ:

إِنِّي وَإِنْ قُلَّ مَالِي لَا يُفَارِقُنِي مِثْلُ النِّعَامَةِ فِي أَوْصَالِهَا طُولُ
تَقْرِبِهَا الْمَرَطِيِّ وَالْجَوْزِ مُعْتَدِلٍ كَأَنَّهُ سُبْدٌ بِالْمَاءِ مَغْسُولٍ^(٦)
أَوْ سَاهِمِ الْوَجْهِ لَمْ تَقْطَعْ أَبَاجِلُهُ يُصَانُ وَهُوَ لِيَوْمِ الرُّوعِ مَبْذُولٍ^(٧)
وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِأَصْحَابِهِ: أَيُّ الْمَنَادِيلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنَادِيلُ

(١) الأَيْطَلُ: الْخَاصِرَةُ. وَإِلْرِخَاءُ: شِدَّةُ الْعُدُوِّ. وَالتَّقْرِبُ: أَنْ يَرْفَعَ الْفَرَسُ يَدَيْهِ مَعًا وَيَضَعُهَا مَعًا فِي عُدُوهِ. وَقِيلَ: إِذَا رَجَمَ الْأَرْضَ رَجْمًا فَهُوَ التَّقْرِبُ. وَالسِّرْحَانُ: الذَّنْبُ. وَالتَّنْفُلُ: وَلَدُ الثَّعْلَبِ.

(٢) الْمَتْنَانِ: مَا اكْتَنَفَا فَقَارَ الظَّهْرِ. وَانْتَحَى: اعْتَمَدَ وَقَصَدَ. وَالمَدَاكُ: الْحَجَرُ الَّذِي يَسْحَقُ عَلَيْهِ الطَّيْبُ. وَالصَّلَايَةُ: الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ الَّذِي يَسْحَقُ عَلَيْهِ حَبُّ الْحَنْظَلِ وَنَحْوِهِ.

(٣) الدَّرِيرُ: الْفَرَسُ السَّرِيعُ الْعُدُوِّ. وَالْخُذْرُوفُ: عُودٌ أَوْ قَصَبَةٌ مَشْقُوقَةٌ يَفْرُضُ فِي وَسْطِهِ ثُمَّ يَشُدُّ بِخَيْطٍ، فَإِذَا أَمَرَ دَارَ وَسَمِعَتْ لَهُ حَفِيفًا، يَلْعَبُ بِهِ الصَّبِيَّانِ. وَيُشَبِّهُ بِهِ الْفَرَسُ فِي سُرْعَتِهِ. وَأَمْرُهُ: قَلْبُهُ ثُمَّ أَدَارُهُ بَيْنَ كَفَيْهِ.

(٤) الْكُمَيْتُ: مَا خَالَطَ حِمْرَتَهُ سَوَادٌ. وَالْحَالُ: وَسْطُ الظَّهْرِ. يَرِيدُ وَصْفَ ظَهْرِهِ بِالْمَلَامَسَةِ فَإِذَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ اللَّبْدُ زَلَّ فَلَمْ يَثْبِتْ عَلَيْهِ. وَالصَّفْوَاءُ: الصَّخْرَةُ الْمَلْسَاءُ الَّتِي لَا يَثْبِتُ فِيهَا شَيْءٌ. وَالْمَتَنَزَّلُ: الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا فَيَزِلُّ عَنْهَا.

(٥) التَّقْرِبُ: أَنْ يَرْفَعَ الْفَرَسُ يَدَيْهِ مَعًا وَيَضَعُهَا مَعًا فِي عُدُوهِ. وَقِيلَ: إِذَا رَجَمَ الْأَرْضَ رَجْمًا فَهُوَ التَّقْرِبُ. وَالْمَرَطِيُّ: فَوْقَ التَّقْرِبِ. وَالْجَوْزُ: الْوَسْطُ. وَالسَّيْدُ: ثَوْبٌ يَسُدُّ بِهِ الْحَوْضَ الْمُرْكُوثَ لَثَلًا يَتَكَدَّرُ الْمَاءُ، يَفْرَشُ فِيهِ وَتَسْقَى الْإِبِلُ عَلَيْهِ.

(٦) سَاهِمُ الْوَجْهِ: عَابِسُهُ، وَهِيَ صِفَةٌ مَعْدُوحَةٌ فِي الْخَيْلِ. وَالْأَبَاجِلُ: جَمْعُ أَبْجَلٍ، وَهُوَ عَرَقٌ غَلِيظٌ فِي الرَّجْلِ، وَهُوَ فِي الْفَرَسِ بِمَنْزِلَةِ الْأَكْحَلِ مِنَ الْإِنْسَانِ.

مصر التي كأنها غرقىء^(١) البيض . وقال بعضهم : مناديل اليمـن التي كأنها أنوارُ الربيع . فقال : ما صنعتم شيئاً ، أفضل المناديل عبدة^(٢) بن الطيب حيث يقول :
لما نزلنا ضربنا ظل أخبية^(٣) وفارَ باللحم للقوم المـراجيلُ
وردًا وأشقر^(٤) لم ينهه^(٥) طابخه ما قاربَ النضج منها فهو مأكول
وقد وثبنا على عوجِ مُسومة^(٦) أعرافهن لأيدينا مناديل

سوابق الخيل

وقال الأصمعي : ما سبق في الرهان فرس أهضم^(٧) قط . وأنشد لأبي النجم^(٨) .
مُتَفَجِّجُ^(٩) الجوف عريض كلـكـله
قال : وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مُسَبِّقاً لا يكاد يسبق ، فسبقت له فرس أنثى
وصلّت أختها^(١٠) ، ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال : علي بالشعراء قال أبو النجم :
فدعينا فليل لنا : قولوا في هذه الفرس وأختها . فسأل أصحاب النشيد النظرة حتى

(١) غرقىء البيضاء : القشرة الملتزمة ببياضها .

(٢) اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة .

(٣) يريد أنهم بنوا أرديتهم فوق رماحهم كما تبنى الأخبية يستظل بها .

(٤) يريد بالورد : ما أخذ فيه النضج من اللحم ؛ وبالأشقر : ما لم ينضج .

(٥) لم ينهه ، أي لم ينضجه ، العرب لا تنضج اللحم ، إما لاستعجالها للضيف ، وإما لأن ذلك مستحب عندها .

(٦) المسومة : المعلمة .

(٧) أهضم (في الخيل) : استقامة الضلوع وانضمام أعالي البطن واستقامتها ودخول أعاليها ، وهو عيب .

(٨) هو الفضل بن قدامة ، الراجز المعروف .

(٩) الانتفاج (بالجيم) : نحو من الانتفاج ، إلا أن الانتفاج (بالحاء) عن علة وداء ، والانتفاج (بالجيم) : من خلقة وسمن .

(١٠) وصلت : جاءت تالية للسابق .

يقولوا. فقلت له: هل لك في رجل يتنقذك إذا استنسوك؟ قال: هات. فقلت: من ساعتي:

أشاع للغراء فينا ذكرها قوائم عوج أطعن أمرها
وما نسينا بالطريق مهرها حين نقيس قدره وقدرها
وصبره إذا عدا وصبرها والماء يعلو نحره ونحرها
ملمومة^(١) شد المليك أسرها أسفلها وبطنها وظهرها
قد كاد هاديا^(٢) يكون شطرها

قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.
أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد وأبو الحسن علي بن جعفر البصري قالا:
حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة
خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة. قال الأصمعي: فدخلت الميدان
لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين، والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه
الأمين والمأمون ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر. فجاء فرس
أدهم، يقال له الربذ^(٣) لهارون الرشيد، سابقاً. فابتهج لذلك ابتهاجاً علم ذلك
في وجهه وقال: علي بالأصمعي. فنوديت له من كل جانب. فأقبلت سريعاً حتى
مثلت بين يديه. فقال: يا أصمعي: خذ بناحية الربذ ثم صفه من قونسه إلى
سُنْبِكِه^(٤)، فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير. قلت: نعم يا أمير
المؤمنين، وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حزة^(٥). قال: فأنشدنا الله أبوك.
قال: فأنشدته:

- (١) ملمومة، أي مجتمعة الخلق. الأسر: شدة الخلق.
- (٢) الهادي: العنق. يريد وصفه بالطول.
- (٣) الربذ من الخيل: السريع. وربذ: خفت رجله في المشي وخفت يده في العمل فهو ربذ. انظر المعجم الوسيط ص ٣٢٢.
- (٤) أي من أعلى رأسه إلى طرف حافره.
- (٥) هي كنية جرير بن عطية الخطفي، الشاعر المشهور.

وأقَبَّ كالسَّرْحَانِ تَمَّ له ما بينَ هامته إلى النَّسْرِ
 الأَقَبُ: اللاحقُ المَخْطَفُ البَطْنُ^(١)، وذلك يكون من خِلقة، وربما حدث من
 هُزال أو بُعد قَوْدٍ^(٢)، والأنثى قَبَاءٌ، والجمع: قُبٌّ، والمصدر: القَبْب. والسَّرْحَانُ:
 الذُّئْبُ، شبهه في ضُموره وعدوه به، وجمعه سراحين، وقد قالوا: سِرَاحٌ^(٣). والهامَة:
 أعلى الرأس، وهي أم الدماغ؛ وهي من أسماء الطير. والنَّسْر: هو ما ارتفع من بطن
 الحافر من أعلاه، كأنه النَّوى والحصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه نسور.
 رُحِبَتْ نَعَامَتُهُ ووُفِّرَ فرخه وتَكُنَّ الصُّرْدَانُ في النَّحْرِ
 رُحِبَتْ: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ، وهي من أسماء
 الطير. وقوله: «وُفِّرَ فرخه». الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور. ووُفِّرَ: أي
 تَمَّ؛ يقال: وَفَّرْتُ الشيءَ ووَفَّرْتُهُ (بالتخفيف) فهو موفور. والصُّرْدَانُ: عِرْقَانِ في
 أصل اللسان، ويقال: إنها عِرْقَانِ أخضرانِ مُكْتَنَفَانِ باطن اللسان، يجري منهما
 الريق ونَفْسُ الرئة، وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صُرْدٌ (أيضا)، وهو بياض يكون
 في موضع السَّرَجِ من أثر الدَّبَرِ^(٤)؛ يقال: فرس صَرْدٌ، إذا كان ذلك به. والنحر:
 موضع القلادة من الصدر، وهو البرك.

وَأَنَافٌ بِالْعُصْفُورِ مِنْ سَعَفٍ هَامٍ أَشْمٌ مَوْثِقُ الْجَذْرِ
 أَنَافٌ: أشرف. والعُصْفُورُ: أصل منبت الناصية والعُصْفُورُ (أيضا): عظم ناقيء
 في كل جبين والعُصْفُورُ: من الغُرُرِ (أيضا)، وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى
 العينين ولم تستدر كالقُرْحَةِ، وهو من أسماء الطير والسَّعَفُ، يقال: فرس بَيْنُ
 السَّعَفِ، وهو الذي سالت ناصيته. وهَامٌ، أي سائل منتشر. وَأَشْمٌ: مرتفع.
 والشَّمَمُ في الأنف: ارتفاع قصبته. ويروى: «هَادٍ أَشْمٌ» يريدُ عُنُقًا مرتفعا، وجمعه:

(١) مخطف البطن: منطويه.

(٢) القود: طول الظهر والعنق.

(٣) سراح، بفتح السين وكسر ها.

(٤) الدبر: جمع دبرة (بالتحريك)، وهي قرحة الدابة.

هوادٍ، وقوله: موثق، أي شديد قوي. والجذر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح؛ وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالذَّيْكين صَلَّصْلُهُ وَنَبَت دَجَاجَتُهُ عَنِ الصَّدْرِ

ازدان: افتعل، من قولك زان بزين، وكان الأصل ازتان، فقلبت التاء دالا، لقرب مخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان واحدهما ديك، وهو العظم الناقى خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخُشْشاء والخُشْاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدَّجاجة: اللحم الذي على زوره بين يديه. والدَّك والصلصل والدَّجاجة، من أسماء الطير.

وَالنَّاهِضَانِ أَمْرًا جَلَزُهُمَا فَكَأَنَّمَا عُثِمَا عَلَى كَسَرِ

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العُضْدَيْنِ من أعلاههما، والجمع نواهض، ويقال في الجمع: أنهض، على غير قياس. والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أمرًا جَلَزُهُمَا، أي قَتَلَ وأحكم؛ أمرتُ الحبل فهو مُمر، أي قَتَلته. والجَلَز: الشد. وقوله:

فَكَأَنَّمَا عُثِمَا عَلَى كَسَرِ

أي كأنهما كسرا ثم جُبرا. يقال: عَثَمْتُ يَدَهُ. والعثم: الجبر على عُقْدَةٍ وَعَوَجٍ؛ وعثمان، فُعْلان منه.

مُسْحَنَفَرُ الْجَنْبَيْنِ مُلْتَمِمٌ مَا بَيْنَ شِيمَتِهِ إِلَى الْغُرِّ

مسحترف الجنبين: أي متنفخها. مُلْتَمِمٌ، أي معتدل. وشيمته: نَحْرُهُ^(١). والشيمة، أيضا: من قولك: فرس أشيم، بين الشيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والغُر في الطير: الذي يسمى الرخمة، وهي عضلة الساق.

وَصَفَتْ سُهَانَاهُ وَحَافِرَهُ وَأَدِيمَهُ وَمَنَابِتُ الشَّعْرِ

(١) الشيمة: من قولك: فرس أشيم: بين الشامة.

السَّمانى : طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السَّمانه، وهي دائرة تكون في سالفه الفرس، وهي عُنقه، والسَّمانه، من الطير أيضاً. والأديم: الجلد.

وسَمَّا الغُراب لموقعيه معاً فأبين بينهما على قدر سما الغراب، أي ارتفع. والغراب: رأس الورك. ويقال للصُّلويين: الغرابان، وهما مُكتنفا عجب الذنب^(١). ويقال: هما مُلتقى أعالي الوركين. والموقعان، منه في أعالي الخاضرتين. فأبين، أي فُرِّق بينهما. على قدر، أي على استواء واعتدال.

واكتنَّ دون قَبِيحه خُطَّافه ونأت سَمَامته عن الصَّقِر اكن: أي استتر. والقبیح: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مُرْكَب الذراعين في العضدين. والخُطَّاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عَقْبُ الفارس إذا حرك رجليه. ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المَرَكْلان. ونأت، أي بعدت. والسَّمانه: دائرة تكون في عُنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقِر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير.

وتقدَّمت عنه القطاة له فنأت بموقعها عن الحرَّ القطاة: مقعد الردف، وهي من أسماء الطير. والحرُّ: من الطير، يقال إنه ذكر الحمام، وهو من الفرس، سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسَمَّا على نَقْويه دون حَداته خَرَبان بينهما مدى الشَّبر النَّقْوان: واحدهما نَقْو، والجمع. أنقاء، وهو عظم ذو مُخ، وإنما عَنَى هاهنا عظام الوركين، لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المُدْهَن في ورك الفرس. وهو من الطير: ذَكْرُ الحُبَّارى. والحِدَاة: من الطير، وأصله الهمز، ولكنه خُفِف، وهي سالفه الفرس، وجمعها حداء، على وزن فعال، كما تقول: عَظاءة وعِظاء، ويقال: عِظاية. وإذا فتحت الفاء قلت: حَدَاة، وهي الفأس ذات الرأسين، وجمعها: حَدَا، مثل نَوَاة ونوى، وقِطَاة وقِطا.

(١) عجب الذنب: أصله، وهو العصعص.

يَدْعُ الرُّضِيمَ إِذَا جَرَى فَلَقًا
الرُّضِيمُ: الحجارة. والفَلَقُ: المكسورة فلقا. بتوائم: جمع توأم، وقد قالوا. تُوِّم،
على وزن فَعَلَ، جمع توأم، وهي على غير قياس. يقول: هي مَثْنَى مَثْنَى، يعني
حواfre.

والمواسم: جمع ميسم الحديد، من وسمت، أي إنها كمواسم الحديد في
صلابتها. وقوله: سمر، أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

رُكِبْنَ فِي مَحْصِ الشَّوَى سَبَطَ
الشَّوَى، هاهنا: القوائم، والواحدة: شَواة. ويقال: فرس مَحْصِ الشَّوَى، إذا
كانت قوائمه معصوبة. سَبَطَ: سهل. كفت الوثوب، أي مجتمع، من قولك: كَفَتُ
الشيء، إذا جمعته وتممته. مشدّد الأسر، أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.
وسبق يوما فرس للرشيد يُسمى المُشمر، وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر
ابني يحيى بن خالد البرمكي، فقال أبو العتاهية:

جاء المُشمر والأفراس يقدّمها
وخلف الريح حَسرى وهي تتبعه
وقال أبو النجم في شعر يصف الفرس، وهو أجود شعر يصف الحلبة:

ثم سمعنا برهان تأمله
فقلت للسناس قده أعجله^(١)
فيل مجنوبا وظل جملة
بين شعيبين وزاد يزمل^(٢)

(١) الجحفل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خيل.

(٢) أراد «أعجله» بإسكان اللام، فلما وقف على الهاء فسكنها ألقي حركتها على اللام ليستقيم الروي.

(٣) لعنا، لغة في لعنا: ويروي، لعنا، بإسكان اللام.

(٤) مجنوبا: لا يركب. وجهه يزمله: أي يحمل الزاد والعلف. وشعيبين، أي مزادتين.

- نَعْلُو بِهِ الْحَزْنَ وَلَا نُسْهِلْهُ ^(١)
 تَرْنُمُ النُّوحَ بَكَى مُشْكِلْهُ ^(٢)
 زُمَارُ دُفٍّ يَتَغَنَّى جُلْجُلْهُ
 طَيَّ التَّجَارِ الْعَصْبُ إِذْ تَنَخَّلْهُ ^(٣)
 نَطْوِيهِ وَالطِّيَّ الرَقِيقُ يَجْدَلْهُ ^(٤)
 حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ تَوَلَّى أَثْجَلْهُ ^(٥)
 قَمْنَا عَلَى هَوْلٍ شَدِيدٍ وَجَلْهُ
 نَقُومُ قَدَمٌ ذَا وَهَذَا أَدْخَلْهُ
 فَوْقَ الْخُمَاسِيِّ ^(٦) قَلِيلًا يَفْضُلْهُ
- إِذَا عَلَا الْأَخْشَبُ صَاحَ جَنْدَلْهُ ^(٧)
 كَأَنَّ فِي الصَّوْتِ الَّذِي يُفْصَلْهُ
 حَتَّى وَرَدْنَا الْمِصْرَ يُطْوَى قَنْبَلْهُ ^(٨)
 وَقَدْ رَأَيْنَا فَعْلَهُمْ فَتَفَعَلْهُ
 نُضْمَرُ الشَّحْمُ وَلَسْنَا نَهْزَلْهُ
 وَأَتْبَعَ الْأَيْدِي مِنْهُ أَرْجَلْهُ ^(٩)
 نَمُدُّ جِلًّا فَوْقَ خَطِّ نَعْدَلْهُ ^(١٠)
 وَقَامَ مَشْقُوقُ الْقَمِيصِ يُعَجِّلْهُ
 أَدْرَكَ عَقْلًا وَالرَّهَانَ عَمَلْهُ

(١) لا نسهله، أي لا نصير به إلى السهل. وإنما أراد لا نسهل به، فحذف الحرف وأوصل. وهو على حد قول غيلان الربيعي يصف حلبه.

وأسهلوهن دقاق البطحا

أراد: وأسهلوا بهن.

- (٢) الجندل: الحجارة. يشير إلى صوت حوافره عليها.
 (٣) النوح: الجماعة من النساء تنوح. والمثكل: التي ثكلت ولدها.
 (٤) الجُلْجُل: الجرس. والقنبِل: الطائفة من الخيل. والضمير فيها يعود على «المصر». يريد أننا وردنا مصر وفيه جماعات الخيل تضم. استعداداً للرهان.
 (٥) العصب: ضرب من البرود. وتنخله: تختاره.
 (٦) يجدله، أي يُحْكِمُ فتل عضلاته ويحسن طيها.
 (٧) الأثجل: القطعة الضخمة من الليل.
 (٨) أتبع: تبع. يريد أن أرجله قد تبعت أيديه. يصف مرور الليل وتولييه، مشبها له في مضيه بالفرس في عدوه.
 (٩) يريد الجبل الذي ينصب قبل إرسال الخيل ويجعل في صدورهما لتكون متساوية عند الإرسال. ويسمى: المقوس أو المقبض.
 (١٠) يقال: غلام خماسي، وذلك إذا كان طوله خمسة أشبار.

حتى إذا أدرك خيلاً مُرسله
تنفّس منه الخيلُ مالا تغزله
مرَّ القِطا انصبَّ عليه أجْدَلُه
قَدَّمه مثلاً لمن يمتثله
تسبح أخراه ويطفؤ أوله
يعطيه ما شاء وليس يسأله
في كُرسف النِّداف لولا بلله
ثم تناولنا الغلام نُنزله
مُنْتَفِجٌ ^(٨) الجوف عريض كلكله

ثار عَجَاجٌ مُستطير قَسْطَلُه ^(١)
مَرًّا يُغْطِيها وَمَرًّا تُنْعَلُه ^(٢)
وهو رَخِيُّ البال ساج ^(٣) وهله
تُطِيره الجن وحيناً تُرجله
تري الغلام ساجياً ما يركله
كأنه من زَبَدٍ يُسْرِبِلُه ^(٤)
تُخَالُ مِسْكَاً عَلاه مُعَلِّلُه ^(٥)
عن مُفْرَعِ الكَتِفَيْنِ ^(٦) حُلُو عَطَلُه ^(٧)
فوافت الخيلُ ونحن نشكله

والجن عكاف به تُقبَله

وقال آخر في فرس أبي الأعور السلمي ^(٩) :

مَرَّ كَلَمْعُ البرق سامٍ ناظِرُه
تَسْبَحُ أولاه ويطفؤ آخرُه
فما يَمَسُ الأرض منه حافرُه
وقول هذا أشبه من قول أبي النجم، لأنه يقول :

تَسْبَحُ أخراه ويطفؤ أوله

(١) والقسطل : الغبار الساطع .

(٢) تنعله ، أي تجعل الغبار تحت أرجلها كالنعل .

(٣) الساجي : الساكن . والوهل : الفزع .

(٤) يسربله : يلبسه . يشبه الزبد ، وقد عم جسمه ، باللباس يغطي الجسد .

(٥) الكرسف : القطن . والنِّداف : الذي يندف القطن بالمندف ، أي بطرقه .

(٦) مفرع الكتفين : عليهما .

(٧) العطل : العنق . وقيل : عطله : ضممه .

(٨) الانتفاج : الانتفاخ من خلقة وسمن .

(٩) أبو الأعور ، هو عمر بن سفيان .

وقال الأصمعي : إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكساح^(١) أسرع منه ، لأن اضطراب مؤخره قبيح .

وقال الأصمعي كان أبو النجم وصافاً للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت ، وقد غلط رؤية أيضاً في الفرس ، فقال يصف قوائمه :

يهوين شتى ويقعن وفقاً^(٢)

ولما أنشده مسلم بن قتيبة . قال له : أخطأت في هذا يا أبا الجحاف ، جعلته مُقَيِّداً . فقال : قرني من ذنب البعير^(٣) .

وأشده الأصمعي :

قد أطرق الحي على سابح
لما أتيت الحي في متنه
أقبل يختال على شأوه
كأنه سكران أو عابس
وقال غيره :

أما إذا استقبلته فكأنه
وإذا اعترضت له استوت أقطاره^(٤)

وقال ابن المعتز :

وقد يحضر الهيجاء بي شنج النساء^(٥)
تكامل في أسنانه فهو قارح^(٦)

(١) الكساح : الكناس .

(٢) والوقوف : كل شيء يكون متفقا على نمط واحد .

(٣) يشير بهذه العبارة إلى أنه يحسن وصف الإبل دون الخيل .

(٤) السابح . الفرس ، لسبحه بيديه . والأسطع : الطويل العنق .

(٥) الصدع من الأوعال والإبل والحمرة : الفتى الشاب القوي .

(٦) الأقطار : النواحي ، الواحد : قطر (بالضم) .

(٧) شنج النساء ، أي متقبضة . والنسا : عرق من الورك إلى الكعب .

(٨) القارح : الفرس في الخامسة من عمره ، وهو بمنزلة البازل من الإبل .

له عُتْق يَغْتَال طَوْلَ عِنَانِهِ وَصَدْرُ إِذَا أَعْطِيَتْهُ الْجَرَى سَابِح
إِذَا مَالٌ عَنْ أَعْطَافِهِ قُلْتُ شَارِب عَنْهُ بِتَصْرِيفِ الْمُدَامَةِ طَافِح
وَقَالَ أَيْضاً:
وَلَقَدْ وَطِئْتُ الْغَيْثَ ^(١) يَحْمِلُنِي طَرَفُ كَلَوْنِ الصُّبْحِ حِينَ وَقَدْ
يَمْشِي فِيَعْرِضُ فِي الْعِنَانِ كَمَا صَدَفَ الْمُعَشَّقُ ذُو الدَّلَالِ وَصَدَّ
طَارَتْ بِهِ رَجُلٌ مُرْصَعَةٌ رَجَامَةٌ لِحَصَى الطَّرِيقِ وَيَدُ
فَكَأَنَّهُ مَوْجٌ يَسِيلُ إِذَا أَطْلَقَتْهُ وَإِذَا حَبَسَتْ جَمْدُ

الحلبة والرهان

والحلبة: يجمع الخيل. ويقال: يجمع الخيل. ويقال: يجمع الناس للرَّهَان. وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا، إذا اجتمعوا. ويقال منه: حَلَبَ الحَالِبُ اللَّبَنَ فِي الْقَدَحِ، أي جمعه فيه. والمِقْوَس: الحبل الذي يُمدُّ في صدور الخيل عند الإرسال للسباق. والمنصبة: الخيل حين تُنصَّب ^(٢) للإرسال. وأصل الرَّهَان من الرهن؛ لأن الرجل يُراهن صاحبه في المسابقة، يضع هذا رهناً وهذا رهناً، فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه. والرَّهَان: مصدر رَاهَنَتْهُ مُرَاهِنَةٌ وَرِهَاناً، كما تقول: قَاتَلْتُهُ مَقَاتَلَةً وَقَتَلَا. وهذا كان من أمر الجاهلية، وهو القمار المنهي عنه، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مُسمى، على أنه إن سبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن، فهذا حلال، لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر. وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما مُحَلَّلاً، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضاً الدَّخِيل، ولا يُجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يُرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه، فكان له طَيِّباً، وإن سبق الدَّخِيل أخذ الرَّهْنَيْنِ جميعاً، وإن سبق هو لم يكن عليه شيء.

(١) يريد النبات حيث يكثر الصيد. (٢) تنصب: تقام وتعد بعضها إلى جانب بعض.

ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً، لا يأمنان أن يسبقهما، وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلها بينهما محلاً.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمُصَلَّى: الثاني الذي يتلوّه. قال: وإنما قيل له مُصَلَّى، لأنه يكون عند صَلَوَيِ السابق، وهما جانباً ذنبه عن يمينه وشماله^(١). ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر، فإنه يسمى سُكَيْتاً. قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يُوثق بعلمه اسماً لشيء منها إلا الثاني والعاشر، فإن الثاني اسمه المُصَلَّى، والعاشر السُّكَيْت، وما سوى ذلك يقال: الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السُّكَيْت. ويقال السُّكَيْت (بالتشديد والتخفيف). فما جاء بعد ذلك لم يُعتد به. والفُسْكل، بالكسر: الذي يجيء آخر الخيل، والعامّة تسميه الفُسْكل، بالضم. وقال أبو عبيدة: القاشور: الذي يجيء في الحَلَبَة آخر الخيل، وهو الفُسْكل، وإنما قيل للسُّكَيْت سُكَيْت، لأنه آخر العدد الذي يقف العادّ عليه. والسُّكَيْت: الوقوف. هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيروا. وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير:

إذا شِئْتُمْ أَنْ تَمْسَحُوا وَجْهَ سَابِقٍ	جَوَادٍ فَمَدُوا فِي الرِّهَانِ عَنَانِيَا
وَمَنْ قَوْلُنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى:	
وَإِذَا جِيَادُ الْخَيْلِ مَاطَلَهَا الْمَدَى	وَتَقَطَّعَتْ فِي شَأْوِهَا الْمَبْهُورِ
خَلَوْا عَنَانِيَا فِي الرِّهَانِ وَمَسَحُوا	مِنِي بَغْرَةً أَبْلَقَ مَشْهُورِ

(١) ويطلق الصلا أيضاً: على وسط الظهر وما انحدر من الوركين والفرجة بين الجاعرة والذنب.

وصف السلاح

كانت دِرْع علي رضي الله عنه صدرًا لاظهر لها فقيـل له في ذلك . فقال : إذا استمكن عدوّي من ظهري فلا يُبقي .

ورُئي الجراح بن عبد الله قد ظاهر بين درعين . فقيـل له في ذلك . فقال : لست أقي بدني وإنما أقي صبري

واشترى زيد بن حاتم أدراعاً وقال : إني لستُ أشتري أدراعاً وإنما أشتري أعماراً .
وقال حبيب بن المُهَلَّب لبنيه لايقعدن أحدكم في السوق ، فإن كنتم لابد فاعلين فإلى زَرَاد ، أو سَرَّاج ، أو وَرَّاق .

العُتبي قال : بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة . فبعث به إليه . فلما ضرب به وجده دون ماكان يبلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك . فردّ عليه : إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به .

وسأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً عن السلام : فقال : يسأل أمير المؤمنين عما بدا له قال : ماتقول في الترس؟ قال : هو المِجَنّ الدائر وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول في الرُمح؟ قال : أخوك وربما خانك فانقصف . قال فالنبل؟ قال : منايا تخطيء وتصيب . قال : فما تقول في الدرع؟ قال : مثقلة للمراجل ، مُتعبة للفارس ، وإنما لِحِصن حصين . قال : فما تقول في السيف؟ قال : هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين . فضربه عمر بالدرة ، وقال : بل لا أم لك
قال : الحمى أضرعتني ^(١) لك .

الهيثم بن عدي قال : وصف سيف عمرو بن معديكرب ، الذي يقال له الصمصامة ، لموسى الهادي فدعا به ، فوضع بين يديه مُجَرَّدًا ثم قال لحاجبه : إيدن للشعراء . فلما دخلوا ، أمرهم أن يقولوا فيه . فبدرهم ابن يامين فقال :

(١) الحمى أضرعتني إليك هو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع .

حاز صمصامة الزبيدي عمرو
سيف عمرو وكان فيما سمعنا
أخضر المتن بين حديه نور
أوقدت فوقه الصواعق ناراً
فإذا ماسلته بهر الشم
فكائن الفرند والرونق الجا
وكأن المنون نيطت إليه
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهية
ما يبالي من انتضاه لضرب
فأمر له ببدة وخرجوا.

من جميع الأنام موسي الأمين
خير ما أعمدت عليه الجفون
من فرند تمتد فيه العيون
ثم شابت به الدعاف القيون
س ضياء فلم تكد تستبين
رى فى صفحته ماء معين
فهو من كل جانبيه منون
جاء يسطو به ونعم القرين
أشبال سطت به أم يمين

وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى
القربوس . فقالوا : ما أجود سيفك ! فغضب . يريد أن العمل ليده لا لسيفه . وقال :
متى تلقنى يعدو بيزي^(١) مقلص
تلاق أمرا إن تلقه فسيفه
وقال أبو الشيص :

ختلته المنون بعد اختيال
في رداء من الصفيح صقيل
وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر ، فوجه إليهم ابنه
الأغر ، وقال : يا بني ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم ؛ وإياك والسيف ، فإنه ظل
الموت ، واتق الرمح ، فإنه رشاء المنية ؛ ولا تقرب السهام ، فإنها رسل لا تؤامر مرسلها .
قال : فبماذا أقاتل ؛ قال : بما قال الشاعر :

(١) البز : السلاح والمقلص : الفرس الطويل القوائم

(٢) الكميت : لون بين السواد والحمرة .

(٣) القميص : الدرع .

جلاميد يملان الأكف كأنها رءوس رجال حُلقت في المواسم
 وذكر أعرابي قوماً تحاربوا فقال :
 أقبلت الفحول تمشي مَشْيَ الوُعُول، فلما تصافحوا بالسيوف، فغرت المنايا
 أفواهاها .
 وقال آخر يذكر قوماً أُسروا : استنزلوهم عن الجياد بَلَيَّة الخِرْصان، ونزعوهم نزع
 الدلاء بالأشطان (١) .
 وقال أعرابي في آخرين ابتغوا قوماً أغاروا عليهم : احتشوا كل جُالية عيرانة، كيما
 يخصفون أخفاف المطيِّ بحوافر الخيل . حتى أدركوهم بعد ثالثة، فجعلوا المران
 أرشية المنايا، فاستقوا بها أرواحهم .
 ومن أحسن ما قيل في السيف قولٌ حبيب :
 ونَبَّهْن مثلَ السيف لو لم تَسْلُهُ يَدانِ لَسَلَّتْهُ ظُبَاه من الغَمْدِ (٢)
 وقال في صفة الرماح :
 مُثَقَّفات سَلَبْنَ الرومَ زُرْقَتَها والعُرَبَ سُمَرَتَها والعاشقُ القَضفا
 ومن الإفراط القبيح قول النابغة في وصف السيف :
 يَقْدُ السَّلُوقي (٣) المضاعَفَ نَسْجَهِ ويُوَقِدُ في الصُّفاحِ نارَ الحُبابِ
 فذكر أنه يقدُّ الدرع المضاعف نسجها، والفارس والفرس، ويقع بها في الأرض
 فيقدح النار من الحجارة .
 وأقبح منه في الإفراط قول الآخر (٤) :
 تَظَلُّ تحفَرُ عنه إن ضربتَ به بعد الذراعين والساقين والهادي (٥)
 وقد جمع العلوي وصف الخيل والسلاح كله، فأحسن وجود حيث يقول :

(١) الأشطان : الحبال .

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي تمام .

(٣) السلوقي، نسبة إلى سلوق : بلدة باليمن تنسب إليها الدروع .

(٤) هو النمر بن تولب . انظر ابن قتيبة / الشعر والشعراء ص ١٩٢ طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ .

(٥) الهادي : العنق

بحسبي من مالي من الخيل أعيط^(١)
وأبيض من ماء الحديد مُهَنَدٌ
وبيضاء كالضحاح^(٢) زَعَفٌ^(٣) مُفَاضَةٌ
ومعطوفة الأطراف كبداء^(٤) سمحة
فياليت مالي غير ماقد جمعتُه
ويا ليتنى أمسي على الدهر ليلةً
ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكل رُدِينِي كَأَن سَنَانِهِ
تَقَاصَرَتِ الْأَجَالُ فِي طَوْلِ مَتْنِهِ
وساءت ظنون الحرب في حُسن ظَنِّهِ
وذي شُطْبٍ تَقْضِي الْمَنَايَا بِحُكْمِهِ
فرنَدَ إِذَا مَا اعْتَنَّ^(٥) لِلْعَيْنِ رَاكِدٌ
يُسَلِّلُ أَرْوَاحَ الْكُفَاةِ انْسِلَالَهُ
إِذَا مَالَتْ قَتَّ أَمْثَالَهُ فِي وَقِيعَةٍ

شِهَابٌ بَدَأَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سَاطِعٌ
وعسادت به الآمال وهي فجائع
فهنَّ ظُبَاتٌ لِلْقُلُوبِ قَوَارِعُ
وليس لما تقضي المنية دافعُ
وبرق إذا ما اهتزَّ بالكفِّ لَامِعُ
ويرتاع منه الموتُ والموتُ رَائِعُ
هنالك ظنُّ النفس بالنفس واقع

(١) الأعيط: الطويل العنق.

(٢) يريد بعري ناهقيه: أنه لالحم عليهما، وهذا تمتدح به الخيل.

(٣) الأمعط: الذي لا شعر على جسده.

(٤) الكبداء: الرمح.

(٥) عنطنط: طويل.

(٦) الضحاح: الماء اليسير.

(٧) الزعف: الدرع الواسعة.

(٨) الكبداء: القوس.

(٩) الشوخط: شجر تتخذ منه القسي.

(١٠) يتغطط، أي ترتفع أمواجه وتعلو.

ومن قولنا في وصف السيف :

بكل مأثور على متنه مثل مدب النمل بالقاع^(١)
يرتد طرف العين من حده عن كوكب للموت لماع

النزع بالقوس

إبراهيم الشيباني قال : كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعة له بواسطة في مغرم لزمه للخليفة، فحمل وكيلا له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير، وقال له : اذهب إلى واسط فاشتر هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك مافي هذا الخرج وإلا فاكتب إليّ أمذك بالمال . فخرج، فلما أصحر^(٢) عن البيوت، لحق به أعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة، فقال له : إلى أين تتوجه؟ فقال : إلى واسط . قال : فهل لك في الصحبة؟ قال : نعم . فسارا حتى فوزا^(٣) فعنت^(٤) لهما طباء قال له الأعرابي : أي هذه الطباء أحب إليك، المتقدم منها أم المتأخر فأزكيه^(٥) لك؟ قال له : المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم فاقتنصه فاشتويا وأكلا . فاغبط الرجل بصحبة الأعرابي . ثم عنت لهما زفة^(٦) قَطَا فقال : أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحدة منها . فرماها فأقصدها، ثم اشتويا وأكلا . فما انقضى طعامهما فوق له الأعرابي سهماً ثم قال له : أين تريد أن أصيبك؟ فقال له : اتق الله - عز وجل - واحفظ زمام الصحبة . قال : لا بدّ منه . قال : اتق الله ربك واستبقني، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالاً . قال : فاخلع ثيابك . فانسلك من ثيابه ثوباً ثوباً

(١) القاع : الأرض المنخفضة بين السهول .

(٢) أصحر عن بيوت، أي تركها وصار في الخلاء .

(٣) فوزاً، أي دخلاً المفازة .

(٤) أزكيه، أي أرميه بالسهم فاجعله مزكى يحل أكله .

(٥) الزفة : الزمرة

حتى بقي مجرداً. قال له: اخلع أمواقك^(١)، وكان لابساً خفين مطابقين^(٢) فقال له: اتق الله في ودع لي الخفين أتبلغ بهما من الحر، فإن الرمضاء تحرق قدمي. قال: لا بد منه. قال: فدونك الخف، فأخلعه. فلما تناول الخف، ذكر الرجل خنجراً كان معه في الخف، فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته، وقال له: الاستقصاء فرقة: فذهب مثلاً. وكان هذا الأعرابي من رُماة الحدق^(٣).

وقال النبي ﷺ: «اركبوا وارموا. وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا» وقال: «كل هو المؤمن باطل إلا في ثلاث: تأديبه فرسه، ورميه عن كبد قوسه، وملاعبته امرأته. فإنه حق. إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد: عامله المحتسب، والقوي به سبيل الله، أي والرامي به في سبيل الله»^(٤).

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(٥).

(١) الأمواق: جمع موق (بالضم) وهو خف غليظ يلبس فوق الخف.

(٢) مطابقين، أي لبس أحدهما فوق الآخر.

(٣) رماة الحدق: أي المهرة في النضال.

(٤) رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين ورواه أبو داود عن عقبة بن عامر وقال الألباني ضعيف/ انظر ضعيف الترمذي [١٧٠٣] وانظر ضعيف أبي داود [٢٥١٣]. ويغني عنه قوله ﷺ «كل شيء ليس من ذكر الله هو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته. وتأديب الرجل فرسه ومشى الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة» رواه النسائي عن جابر بن عبد الله «ومر النبي ﷺ بنفر يرمون فقال: رمياً بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً» أخرجه ابن ماجه وأحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم انظر الصحيحة ١٤٣٩.

وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ «ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله. فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه». وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصي». انظر صحيح مسلم/ كتاب الإمارة - باب فضل الرمي والحث عليه.

(٥) رواه مسلم بنحوه/ كتاب الإمارة/ باب فضل الرمي والحث عليه [١٩١٧].

وكان أرمى أصحاب رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص، لأن رسول الله ﷺ دعا له، فقال: «اللهم سدّد رميته، وأجب دعوته»^(١) فكان لا يرد له دعاء، ولا يخيب له سهم.

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخاً من أسلم حدثوه: أن رسول الله ﷺ جاءهم وهم يرمون ببطحان^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «ارموا يابني إسماعيل، فقد كان أبوكم رامياً، وأنا مع ابن الأدرع»^(٣) فتعدى القوم فقالوا: يارسول الله، من كنت معه فقد نضل^(٤). قال رسول الله ﷺ: «ارموا وأنا معكم كلكم. فانتضلوا ذلك اليوم، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل»^(٥).

وقال عمر: اثترزوا وارزدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، وألقوا الركب^(٦)، وانزوا على الخيل نزوا، وعليكم بالمعدية - أو قال بالعربية - ودعوا التنعيم وزيّ العجم وقال أيضاً: لن تخور قواكم مانزوتم ونزعتم. يعني نزوتم على ظهور الخيل، ونزعتم بالقسي.

وجنى قوم من أهل اليهامة جناية، فأرسل السلطان إليهم جنداً من محاربة ابن زياد^(٧). فقام رجل من أهل البادية يذمر أصحابه، فقال: يامعشر العرب، ويابني المحصنات. قاتلوا على أحسابكم وأنسابكم، فوالله إن ظهر هؤلاء عليكم لا يدعون بها لبنة حمراء، ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض، ولا اعتراض من نشاب معهم

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة [١٤٠٨] وموسى بن عقبة والحديث ضعيف، وكون سعد رضي الله عنه مستجاب الدعوة أمر معلوم وفي سنن الترمذي [٣٧٥١] بسند صحيح «اللهم استجب له إذا دعاك» يعني سعداً.

(٢) بطحان (بالضم أو بالفتح وكسر الطاء): موضع بالمدينة

(٣) ابن الأدرع: اسمه محجن. وقيل: سلمة والأدرع لقب.

(٤) نضل: غلب في المناضلة، وهي المراماة.

(٥) رواه البخاري بنحوه/كتاب الجهاد - باب التحريض على الرمي

(٦) الركب (ككتب): جمع ركاب.

(٧) ابن زياد: هو عبيد الله بن زياد ابن أبيه.

فی جعاب كأنهار أبور الفيلة، یزعون فی قسي كأنها العبط، تبط إحداهن أطيظ الزرنوق^(١)، يمعط^(٢) أحدهم فیها حتی یتفرق شعر إبطیه، ثم یرسل نشابة كأنها رشاء منقطع فما بین أحدکم و بین أن تنفضخ عینه أو ینصعد قلبه منزلة. فخلع قلوبهم، فطاروا رعباً.

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدي ووزرائه، ومادار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنف، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة، على أن نكتوا بيعتهم ونقضوا موثقهم، وطرّدوا العمال، والتواؤا بما عليهم من الخراج، وحمل المهدي مايجب من مصلحتهم، ويكره من عنتهم، على أن أقال عثرهم، واغتفر زلتهم، واحتمل دالتهم؛ تطولاً بالفضل، واتساعاً بالعفو، وأخذ بالحجة، ورفقا بالسياسة. ولذلك لم يزل، منذ حمّله الله أعباء الخلافة، وقلده أمور الرعية، رفيقا بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه؛ باسطاً للمعدلة في رعيته، تسكن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه. فإذا وقعت الأفضية اللازمة، والحقوق الواجبة، فليس عنده هودة ولا إغضاء ولا مداهنة، أثره للحق، وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحزم. فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه، والثقة بعفوه، أن كسروا الخراج، وطرّدوا العمال، وسألوا ماليس لهم من الحق. ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار، وخصومه بإقرار، وتنصلاً باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه، وبعث إلى نفر من لحمته^(٣) ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية، ثم أمر الموالي بالابتداء، وقال للعباس بن محمد^(٤): أي: عم؛ تعقب قولنا،

(١) الزرنوق: واحد الزرنوقين، وهما منارتان تبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع عليها خشبة تعرض عليهما ثم تعلق فيها البكرة فيستقي بها.

(٢) معط الرامي في قوسه: أغرق في مدها.

(٣) لحمته: قرابته.

(٤) هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أخو المنصور.

وَكُنْ حَكِيمًا بَيْنَنَا. وَأَرْسَلْ إِلَى وَلَدِيهِ مُوسَى وَهَارُونَ فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ، وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ، وَأَمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ بِحِفْظِ مَرَاغِبَتِهِمْ، وَإِثْبَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ.

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ دَارِ الْمَظَالِمِ: أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِنَاعَةً، اسْتَغْفَرْتَ رَأْيَهُمْ، وَاسْتَغْفَرْتَ أَشْغَالَهُمْ، وَاسْتَفْتَدْتَ أَعْمَارَهُمْ، وَذَهَبُوا بِهَا وَذَهَبَتْ بِهِمْ، وَعُرفُوا بِهَا وَعُرفَتْ بِهِمْ. وَلِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلْنَا فِيهَا غَايَةً وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا، أَقْوَامٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَرْبِ، وَسَاسَةِ الْأُمُورِ، وَقَادَةِ الْجُنُودِ، وَفِرْسَانِ الْهَزَاهِرِ^(١) وَإِخْوَانِ التَّجَارِبِ، وَأَبْطَالِ الْوَقَائِعِ، الَّذِينَ رَشَحْتَهُمْ سِجَالُهَا، وَفِيَّاتِهِمْ ظِلَالُهَا، وَعَضَّتْهُمْ شِدَائِدُهَا، وَقَرَمَتْهُمْ نَوَاجِذُهَا. فَوَعَجَمْتَ مَا قَبْلَهُمْ، وَكَشَعْتَ مَا عِنْدَهُمْ، لَوَجَدْتَ نِظَائِرَ تَوْيْدٍ أَمْرِكَ، وَتَجَارِبَ تَوَافُقِ نَظَرِكَ، وَأَحَادِيثَ تُقَوِّي قَلْبَكَ. فَأَمَّا نَحْنُ، مَعَاشِرَ عَمَالِكَ، وَأَصْحَابِ دَوَاوِينِكَ، فَحَسَنٌ بِنَا وَكَثِيرٌ مِمَّنْ أَنْ نَقُومَ بِثِقَلٍ مَا حَمَلْتَنَا مِنْ عَمَلِكَ، وَاسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمْضَاءِ عَدْلِكَ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ، وَإِظْهَارِ حَقِّكَ.

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ: إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا، يَبْطُلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزَمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا.

قَالَ: نَعَمْ، أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ، أَنْتَ مَتَسِعَ الرَّأْيِ، وَثِقَ الْعُقْدَةِ، قَوِيَّ الْمُنَّةِ، بَلِيغَ الْفُطْنَةِ، مَعْصُومَ النِّيَّةِ، مُحْضُورَ الرُّوْيَةِ، مُؤَيَّدَ الْبَدِيْهِةِ مُوَفَّقَ الْعَزِيْمَةِ، مُعَانٌ بِالْظَّفَرِ، مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ. إِنْ هَمِمْتَ فَفِي عِزِّكَ مَوَاقِعُ الظَّنِّ، وَإِنْ أَجْمَعْتَ صَدْعَ فَعْلِكَ، مَلْتَبَسَ الشُّكِّ. فَاعْزِمِ يَدَ اللَّهِ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطِقَ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ؛ فَإِنْ جُنُودُكَ جَمَّةٌ، وَخِزَانَتُكَ عَامِرَةٌ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ، وَأَمْرُكَ نَافِذٌ.

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ: إِنْ الْمَشَاوِرَةَ وَالْمَنَاظِرَةَ بِأَبَا رَحْمَةٍ، وَمِفْتَاحَا بَرَكَةٍ، لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا رَأْيِي، وَلَا يَتَفِيلُ^(٢) مَعَهُمَا حَزْمٌ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ.

قَالَ الرَّبِيعُ: أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ، إِنْ تَصَارِيفَ وَجْهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ وَإِنْ الْإِشَارَةُ بِيَعْضِ

(١) الهزاهز: الفتن والحروب. (٢) لايتفيل: لا يضعف.

معاريض القول ^(١) يسيرة. ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشقة، متفاوتة السبل. فإذا ارتأيت من محكم التدبير، ومُبرم التقدير، ولُباب الصواب، رأيا قد أحكمه نظرُك، وقلبه تدبيرُك، فليس وراءه مذهبٌ لحجة طاعن، ولادونه معلق لخصومة عائب؛ ثم خبت البرد ^(٢) به، وانطوت الرسل عليه، كان بالحري أن لا يصل إليهم محكمه، إلا وقد حدث منهم ما ينقضه. فما أيسر أن ترجع إليك الرسل، وترد عليك الكتب، بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم، فتحدث رأيا غيره، وتبتدع تدبيرا سواه، وقد انفرجت الحلق وتحللت العقد، واسترخى الحجاب ^(٣) وامتد الزمان ثم لعلنا موقع الأخيرة كمصدر الأولي. ولكن الرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تصرف إجمالة النظر وتقليب الفكر، فيما جمعنا له، واستشرتنا فيه، من التدبير لحربهم، والحيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثره عليك، ولا ظنينا ^(٤) على دُخلة مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محظورة، فيقدح في ملكك، ويربض ^(٥) الأمور لغيرك، ثم تسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه، بلزوم أمرك ما لزمه الحزم؛ وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي، عند استحالة الأمور، واستدارة الأحوال، التي يُنقض أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمورهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقويت المكيدة، ونفذ العمل، وأُحْدِ النظر. إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن وليّ الأمور وسائس الحروب، ربما جند جنوده، وفرّق أمواله في غير ماضيق أمر حزبه ^(٦)، ولا ضغطة حال اضطرتة،

(١) معاريض القول: ماعرض به ولم يصرح، وهي التورية عن الشيء بالشيء.

(٢) خبت: أسرع. والبرد: جمع بريد، وهو الرسول.

(٣) الحجاب: شيء تعلق به المرأة الحلي وتشده في وسطها.

(٤) الظنين: المتهم.

(٥) يربض: يثبت.

(٦) حزبه: أشد عليه.

فيقعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها، عديماً منها، فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعدة، ولا يفرع إلى ثقة. فالرأى لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغيرير القتال، ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدهم، وتجريء من رعيته غيرهم. ولكن أغزهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم، وأرعد نحوهم بالفعل، وابعث البعوث، وجند الجنود، وكتب الكتائب، واعقد الألوية، وانصب الرايات، وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش، مع أحنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم. ثم ادسس الرسل وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك. وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، وأغرض أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوى الصدور على البغضة، ويدخل كلا من كل الحذر والهيبه، فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحيلة، والمناسبة بالكتب، والمكيدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين، الذي يستلب العقول، ويسترق القلوب؛ ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة^(١)، أنفذ من القتال بظلمات السيوف وأسنة الرماح. كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكيدة، أحكم عملاً، وألطف نظراً. وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، وإتلاف الأموال، والتغيرير والأخطار. وليعلم المهدي - وفقه الله - أنه إن وجّه لقاتلهم رجلاً، لم يسر لقاتلهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار صعبة، وأموال متفرقة، وقواد غششة، إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون،

(١) المواتاة: الموافقة.

وتجسد حقه في القلوب. ولكن فوق كل ذى علم عليهم. ثم نظر إلى ابنه على، فقال: ماتقول؟

قال على: أيها المهدي إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا من دونك أحداً يكدح في تغيير ملكك، ويربض الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحال أذل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذله، وعند مواعده الذي لا يخلفه. ولكنهم قوم من رعيته، وطائفة من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً. طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً، فإن أجبت إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة^(١) الحرب، ووفرت خزائن المال، وطرحت تغيير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسجاح خليقتك، ومعدلة نظرك. فأمنت أن تنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دُرْبَةٍ. وإن منعتهم ما طلبوا، ولم تجبههم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساوتهم في ميدان الخطاب. فما أربُ المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مذعنين طاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الجدل معهم، ثم يجازيهم السوء في جدِّ المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمري لا يراها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعاف ما يدعي قبلهم. ولو نالها فحملت إليه، ووضعت بخرائطها^(٢) بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان ذلك مما إليه ينسب، وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه؛ وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه، فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود،

(١) نائرة الحرب: ما اشتعل منها وانقد.

(٢) الخرائط: جمع خريطة، وهو وعاء من آدم وغيره يشرح على مافيه.

وأنطقوا لسان الإرجاف^(١) وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم. فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه، وإقالة عثرتهم صفحه، واستبقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه، ولا مستنكراً من نظره. لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً، وأشدّها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاضمه عفوه، ولا يتكأده^(٢) صفح، وإن عظم الذنب، وجل الخطب. فالرأي للمهدي - وفقه الله تعالى - أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم، وضعية عيالاتهم، برّاً بهم وتوسعا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته وأساس حقه الذين بعزتهم يصول، وبحجتهم يقول. وإنما مثّلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه، وتعرضوا له من معاصيه، وانطوا فيه عن إجابته، ومثّل في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته عليهم كمثّل رجلين أخوين متناصرين متوازرين، أصاب أحدهما خيل عارض، ولم حادث، فنهض إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالكره، فلم يزد ذلك أخاه إلا رقة له، ولطفاً به، واحتياجاً لمدّاة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبراً به، ومرحمة له.

فقال المهدي: أما عليّ فقد نوى سمت اللبان، وفض القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبيا مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ماترى يا أبا محمد؟ يعنى موسى ابنه. فقال موسى: أيها المهدي، لاتسكن إلى حلاوة مايجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم. الحال من القوم تنادى بمضمرة شر، وخفية حقد، قد جعلوا المعاذير عليه سترًا، واتخذوا العلل من دونها حجاباً، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويشنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر

(١) الإرجاف: الخوض في أخبار الفتن لإيقاع الاضطراب في الناس

(٢) يتكأده: يشق عليه.

الأمر بهم . والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمنة قد قتر لها ، وأنس بها ، وسكن إليها . ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم ، من المناصب بالقتال ، والإضرار للقراع ، عن داعية ضلال ، أو شيطان فساد ، لرهبوا عواقب أحوال الولاة ، وغب سكون الأمور . فليشد المهدي - وفقه الله - أزره لهم ، ويكتب كتائبه نحوهم ، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم ، إلا كانت دربة لفسادهم ، وقوة من معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود ، الذين إن أقرهم على تلك العادة ، وأجراهم على ذلك الأدب ، لم يبرح في فتق حادث ، وخلاف حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا . وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدربة ، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة ، والمثوبة الشديدة . والرأي للمهدي - وفقه الله - أن لا يُقبل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرمهم القتل ، ويحرق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ، ويطبق عليهم الذل . فإن فعل المهدي بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم . واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

قال المهدي : قد قال القوم ، فاحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد : أيها المهدي ، أما الموالى فأخذوا بفروع الرأي ، وسلخوا جنبات الصواب ، وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها ، لأنه لم تأت تجاربهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تنفق ، والجنود أن لا تفرق ، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا ، ولا يبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمر بين ذلك ، استصغاراً لأمرهم ، واستهانة بحربهم ، وإنما يهيج جسيما الأمور صغارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرفق . وإذا جرد الوالى لمن غمط أمره ، وسفه حقه اللين بحثاً ، والخير محضاً ، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينة ولا بشر

يُحْيِشُهُمْ^(١) إلى خيره، فقد ملكهم الخلع لعذرهم^(٢)، ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم. فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطهرهم، ولا شدة حال أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم، ونزوة في رءوسهم، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويصرفون بها رأى المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويسرعوا لإجابته، باللين المحض، والخير الصراح، فذلك ماعليه الظن بهم، والرأى فيهم، وما قد يُشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم، والملك الكبير، ما لا يخطر على قلب بشر، ولا تدركه الفكر، ولا تعلمه نفس، ثم دعا الناس إليها، ورغبهم فيها. فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبُوا^(٣) بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه. وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشر مجرداً، ليس معها طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتناع من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التهادي في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكُره، ويدعنوا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق، وتُعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد اجتمع رأيه، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه

(١) يحيشهم: أي يفزعهم

(٢) العذر (بضمتين) جمع عذار؛ وهو من اللجام ماسال على خد الفرس.

(٣) عصب الشيء: لواه وشده.

البعوث نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحق، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأى.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد إلى ماتحب، ولكنى أرى غير ذلك. قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً. خالفت به أهل بيتك جميعاً، والمرء متهم بما قال: وطنين بما ادعى، حتى يأتي بينة عادلة، وحجة ظاهرة؛ فاخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن مايسرون على ظاهر مايعلمون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخولة لاتعلن. والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم^(١) يده، وموضع ميسمه^(٢)، لايتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء. فالرأى للمهدي - وفقه الله - أن يفر^(٣) باطن أمرهم فر السنة، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالة العيون، حتى تهتك حجب غيوبهم، وتكشف أغطية أمورهم، فإن انكشفت الحال له، وأفضت الأمور به، إلى تغيير حال، أو داعية ضلال، اشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدين يعتقدونه، وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها. وإن انفرجت الغيوب، واهتصرت الستور، ورفعت

(١) مقدم يده، أى الموضع الذى يقدم الطبيب فيه يده من المريض.

(٢) الميسم: المكواة.

(٣) يفر: يختبر.

الحجب، والحال فيهم مريعة ^(١)، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظلمات يدعونها، وحقوق يسألونها، بئانة سابقتهم، ودالة مناصحتهم، فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ماصدعوا، ويرتق من فتقهم مافتقوا، ويولي عليهم من أحبوا، ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم، فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته، بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعى الحذب، الذى يحتال لمرايض غنمه، وضوال رعيته. حتى يبرئ المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة، ومائة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة، لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم، ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ، أحزم في الرأي. وأصح في التدبير، من التأخير لها، والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: مازال هارون يقع وَقَعَ الحيا، حتى خرج خروج القَدَح مما قال، وانسلّ انسلال السيف فيما ادعى. فدعوا ماقد سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنى بعده هارون. ولكن من لأعنة الخيل، وسياسة الحرب، وقادة الناس، إن أمعن بهم اللجاج، وأفرطت بهم الدالة؟

قال صالح: لسنا نبُلغ أيها المهدي بدوام البحث، وطول الفكر، أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل، ورأى كامل، وتدبير قوي، تقلده حربك،

(١) مريعة، أى موفرة الرزق خصبة؛ يقال: مرع الوادي (من باب كرم)، أى أخصب بكثرة الكلا، فهو مريع.

وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقية مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم، فليس يقع اختيارك، ولا يقف نظرك، على أحد توليه أمرك، وتسند إليه ثغرك، إلا أراك الله منه ماتحب، وجمع لك منه ماتريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان، أيها المهدي، قوم ذوو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة، فالروية عنهم عازبة، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذلمهم، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بالشدة، ولا يفظمون إلا بالقهر. وإن ولي المهدي عليهم وضيعاً لم تنقد له العظماء، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء. وإن آخر المهدي أمرهم، ودافع حربهم، حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم^(١)، بلا أنفة تلزمهم، ولا حمية تدخلهم، ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد، ولا يستصلحه، وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم، ولا قارعاً صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق، موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لاتزعزع، وبهمة لايشنى، وبازل^(٢) لايفزعه صوت الجللجل؛ تقي العرض، نزبه النفس، جليل

(١) أملاؤهم: جماعاتهم، الواحد: ملا.

(٢) البازل: الجمل في السنة التاسعة. ويطلق على الرجل الكامل في تجربته.

الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته ؛ فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً ، فليس يغفل عملاً ، ولا يتعدى أملاً ، وهو رأس مواليك ، وأنصح بني أبيك ، رجل قد غُذي بلطف كرامتك ، ونبت في ظل دولتك ، ونشأ على قويم أدبك . فإن قلدته أمرهم ، وحملت ثقلهم ، وأسندت إليه ثغرهم ، كان قفلاً فتحه أمرك ، وباباً أغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً . وإذا حكم النصفة ، وسلك المعدلة ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك في الذي بين صدورهم ، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق ، بأسقة الفروع ، متمثلة في حواشي عوامهم ، متمكنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه ، ولا يلزمهم حق إلا أدوه ، وهذا أحدهما . والآخر عود من غيظتك ، ونبعة من أرومتك ، فتي السن ، كهل الحلم ، راجح العقل ، محمود الصرامة ، مأمون الخلاف ، يجرد فيهم سيفه ، ويبسط عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون ، وهو فلان أيها المهدي . فسلطه - أعزك الله - عليهم ، ووجهه بالجيش إليهم ، ولا تمنعك ضراعة سنة ^(١) ، وحادثة مولده ، فإن الحلم والثقة مع الحداثة ، خير من الشك والجهل مع الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به ، من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفس ، كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب ، فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم ، مزروع في قلوبكم ، مستحكم لكم ، متكامل عندكم ، بطباع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله : أفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر ،

(١) ضراعة سنة : شبا به .

وأهل خراسان في حال عز على ماؤصف، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنبه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيش والهيبة في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان، أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويحتثون بها عليه، في النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله، والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود، والجيش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصوت والهيبة، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم، ووقع معرفتهم، وربما وقع البوار قبل الاختبار. وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب، نبه حنيك صيَّ، له نسب زاك، وصوت عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالميقة^(١)، ووثقوا به كل الثقة، فلولاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبت قصد الرمية، وأبيت إلا عصبية، إذ رأيي الحدث من أهل بيتنا، كرأي عشرة حلما من غيرنا. ولكن أين تركتم ولي العهد؟ قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده، ونسيج وحده، ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله. ولكن وجدنا الله عز وجل قد حجب عن خلقه، وستر من دون عباده، علم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى به المقادير، من حوادث الأمور، وريب المنون، المخترمة^(٢) لحوالي القرون، ومواضي الملوك، فكرهنا شسوعه^(٣) عن محلة الملك، ودار السلطان، ومقر الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستقر الجنود، وموضع الوجوه، ومجمع الأموال،

(١) الميقة: الحب.

(٢) المخترمة: المهلكة.

(٣) شسوعه: بعده.

التي جعلها الله عزوجل قطباً لمدار الملك، ومصيدة لقلوب لناس، ومثابة لإخوان الطمع، وثوار الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، وأبناء المروق. وقلنا إن وجه المهدي وليّ عهده، فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يعقبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه، وهذا خطر عظيم، وهول شديد، إن تنفست الأيام بمقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عَرَض لا يُستغنى فيه، أو يحدث أمر لا بد فيه منه، صار مابعده، مما هو أعظم هَوَلاً وأجل خطراً، له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر ما تذهبون إليه وعلى غير ماتصفون الأمر عليه. نحن - أهل البيت - نجري من أسباب القضايا، ومواقع الأمور، على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابع على الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره عندنا، فيه نُدَبِر وعلى الله نتوكل. إنه لا بد لوليّ عهدي، وولي عهد عقبي من بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يُقدّم إليهم رسله، ويعمل فيهم حيلة، ثم يخرج نَشِطاً إليهم حَنِقاً عليهم يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، إلا توطأه بحرّ القتل، وألبسه قناع القهر، وطوّقه طوق الذل؛ ولا أحداً من الذين عملوا في قصّ جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاية الحق، إلا أجرى عليهم دِيمَ فضله، وجداول بذله. فإذا خرج مُزْمِعاً له مُجْمِعاً عليه، لم يَسِرْ إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد عملت حيله. وكذحت كتبه، ونفذت مكائده؛ فهدأت نافرة القلوب، ووقعت طائفة الأهواء^(١) واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم، وبراً بهم، وتعطفاً عليهم، إلى عدو قد

(١) وقعت طائفة الأهواء: خمد غضبها وسكنت ثائرتها.

أخاف سيولهم، وقطع طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون، وبذل ما يسألون، فإذا سمت الفرق بقرانها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بخعت^(١) بطاعتها، وألقت بأزمته، فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته وخصها بعظيم حباؤه، ثم عم الجماعة بالمعدلة، وتعطف عليهم بالرحمة. فلاتبقي فيهم ناحية دانية، ولافرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعة، فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضعيها، وزاد رفيعها، ماخلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخف بدعوته، وتبطئ عن إجابته، وتثاقل عن حقه، فتكون آخر من يبعث، وابطأ من يؤجّه فيضطمر^(٢) عليها موجدة، ويبتغى لها علة، لايلبث أن يجدها بحق يلزمهم، وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحرّ فيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبع، حتى يُجرب البلاد، ويؤتم الأولاد وناحية لايسط لهم أماناً، ولايقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة، لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرّع جلباب الفتنة، وربض في شقّ العصا. ولكنه يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم، ويطلب هربهم، في لجج البحار، وقُلل الجبال، وخمر^(٣) الأودية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يدع الديار خراباً، والنساء أياماً. وهذا أمر لانعرف له في كتبنا وقتاً، ولانصحح منه غير ماقلنا تفسيراً.

(١) بخعت بطاعتها: أقرت بها.

(٢) يضطمر، أى يضمّر في نفسه ويخفي.

(٣) الخمر (بفتحتين): ماواراك من شجر؛ تقول: توارى الصيد مني في خمر الوادي.

وأما موسى ولي عهدي، فهذا أوان توجهه إلى خراسان، وحلوله بخرجان، ومقاضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خير للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغمر في لجج بحورنا، ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب^(١) مشرق نوره، ويُثقل كثير ماهو كائن منه. فمن يصحبه من الوزراء، ومن يختار له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملّتك علما قد تثنت نحوه أعناقها، ومُدّت سَمْتَه أبصارها. وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك: عُطّل الحال، غُفّل الأمر، واسع العذر. فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة، وأمراء الأمة، أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله، في برّه ومَرَحْمته، وإقساطه ومَعْدَلته، وتديبره، وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ماسبق إليهم، أغلب الأشياء عليهم، وأملك الأمور بهم، وألزمها لقلوبهم، وأشدّها استمالة لرأيهم، وعطفاً لأهوائهم، فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوّي عمّد مملكته ويُسَدّد أركان ولايته، ويستجمع رضا أمته، بأمر هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مَغْبَةً لأمره، وأجل موقعاً في قلوب رعيته، وأحدُ حالاً في نفوس أهل ملّته. ولا أوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهر من فعله، ومعدلة تنتشر من أثره، ومحبة للخير وأهله. وأن يختار المهديّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا، ثم تُسهل لهم عِمارة سُبُل الإحسان، وفتح باب المعروف، كما قد كان فتح له وسُهّل عليه.

قال المهديّ: صدقت ونصحت. ثم بعث في ابنه موسى^(٢) فقال: أي بُني، إنك

(١) يتذأب: يضطرب. (٢) بعث في ابنه: أي في طلب ابنه.

قد أصبحت لَسَمْتُ عيون العامة نُصْباً، ولثني أعطاف الرعية غاية، فحسنتك شاملة، وإساءتك نامية وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله عزوجل وطاعته، فاحتمل سُخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله عزوجل كافيك من أسخطه عليك إثارك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إثارك رضا من سواه. ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان عِترَةً من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا لنصرة حقّه؛ يُجَدِّد حبل الإسلام بدعواهم، ويُشَيِّد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً، يسدون الخلل، ويقومون الميل، ويدفعون عن الأرض الفساد. وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظام بمناصحتهم، ونُدافع ريب الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركن الدهر ببصائرهم. فهم عماد الأرض إذا أُرْجِفَتْ كُنُفُهَا وَخُتِفَ الأعداء إذا برزت صَفْحَتُهَا، وَحُصُون الرعية إذا تضايقت الحال بها. قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات، أخذت نيران الفتن، وقصمت دواعي البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكوا كذلك ما جَرَوْا مع ربح دولتنا، وأقاموا في ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا، التي أعز الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعتهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومحالفة الأسى، وجهد البأس والضرر. فظاهرٌ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالتهم، وماتة سابقتهم، وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أي بني: ثم عليك العامة، فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستجلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسن بذلك لربك، وتزين به في عين رعيتك، واجعل عمال القدر، وولاة الحُجج مُقَدِّمة بين يدي عملك، ونصفه منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حدث، وإن أساء عذرت، هؤلاء عمال القدر

وولاية الحجج . فلا يضيعن عليك ما في ذلك - إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع - من انعقاد السنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور. ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً، وبُعْرى حبلك متعلقاً، رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول، بصير بتقلب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء الأدب، ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك؛ وتحلية ذكرك، فتستشير في حربك، وتدخله في أمرك؛ فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلي، ويرعى في خضرة جناني: ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواماً يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونته وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك؛ وهادياً ينطق بالحق لسانك.

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد (١)

باب في مداراة العدو

في كتاب الهند: إن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل الخشوع والخضوع له، كما أن الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بليته واثناؤه معها.

وقالوا: ازفن (٢) للفرقد في دولته.

(١) تذكر المصادر أن وفاة المهدي في ٢٢/١/١٦٩ هـ انظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣١٥ وانظر ابن قتيبة/المعارف ص ٣٨٠ ولعل التاريخ في آخر الكتاب هو تاريخه وإعلانه وليس تاريخ كتابته والله أعلم.

(٢) ازفن: أرقص.

أخذه الشاعر فقال:

لاتعبدن صنماً في فاقة وازفين بلا حرج للقرء في زمنه
وقال أحمء بن يوسف الكاتب: إذا لم تقءر أن تعض يء عءوك فقبلها.
وقال سابق البلوي:

وءاهن إذا ماخفت يوماً مسلطاً عليك ولن يءتال من لا يءاهن
وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة (١) الفرصة عءء إمكانها والانصراف عما
لا سبيل إليه.
وقال الشاعر:

بلاء ليس يشبهه بلاء عءاوة غير ذى حسب وءين
يبحك منه عرضاً لم يصنه ويرتع منك في عرض مصون

التحفظ من العءو إن أبءى لك الموءة

قالت الحكماء: اءذر الموتور ولا تظمئن إليه، وكن أشء ما تكون ءذراً منه أطف
ما يكون مءاخلة لك. فإنها السلامة من العءو بءباعءك منه، وانقباضك عنه؛ وعءء
الأنس إليه والثقة به تمكنه من مقاتلك.

وقالوا: لا تظمئن إلى العءو إن أبءى لك المقاربة، وإن بسط لك وجهه، وءفض
لك جناحه، فإنه يتربص بك الءوائر، ويضمء لك الغوائل، ولا يرتجى صلاحاً إلا
في فساءك، ولا رفعة إلا بسقوط جاهك.

كما قال الأءطل:

بنى أمة إنى ناصء لكم فلا يبيتن فيكم امناً زفر (٢)
وأتءذوه عءواً إن شاهدَه وما تغيب من أخلاقه ءعر (٣)

(١) المغافصة: المفاجأة والأءء على غرة.

(٢) هو زفر بن الءارء بن كلاب الكلابي، أخو بني نفيل بن عمرو بن كلاب.

(٣) الءعر: الفساد.

إن الضغينة تلقاها وإن قُدِّمت كالْعُرِّ^(١) يكْمُن حيناً ثم يَنْتَشِرُ
وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر الموائبة إن قرب،
والمعاودة إن بعد: والكمين إن انكشف، والاستطراد إن وُلِّي، والكِّرة إن فر
وأوصى بعض الحكماء ملكاً فقال: لا يكونن العدو الذي كشف لك عن عداوته
بأخوف عندك من الظنين الذي يستتر لك بمُخَاتَلَتِهِ، فإنه ربما تخوف الرجل السَّمَّ
الذي هو أقتل الأشياء، وقتله الماء الذي هو محمي الأشياء؛ وربما تخوف أن تقتله
الملوك التي تملكه، ثم تقتله العبيد التي يملكها.

ولم يقل أحد في العدو المندمل على العداوة؛ مثل قول الأخطل:
إن الضغينة تلقاها وإن قدمت كالْعُرِّ يكْمُن حيناً ثم يَنْتَشِرُ
وقد أشار الحسن بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:

وابن عم لا يكشفنا قد لبسناه على غمره^(٢)
كَمُن الشَّنان فيه لنا ككمون النار في حجره^(٣)
وشبهوا العدو إذا كان هذا فعله بالحية المطرقة. قال ابن أخت تأبط شراً:

مطرق يرشح موتاً^(٤) كما أطرق أفعى ينث السَّمَّ صل
وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية - ويقال: بل معاوية قالها لعبد الله بن الزبير -:
مالى أراك تطرق إطراق الأفعوان في أصول السَّخْرِ؟

وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعله ألجأته إليك فمع ذهاب العلة
رجوع العداوة، كالماء تسخنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً: والشجرة المرة
لو طليتها بالعسل لم تثمر إلا مرة.

(١) العر: الجرب.

(٢) الغمر: الحقد.

(٣) يريد حجر القادح.

(٤) الرش: العرق. والنفث كالقذف. والصل: من صفة الأفعى؛ وكل خبيث يقال له: صل
أصلاً.

وقال دريد بن الصمة :

وما تخفى الضغينة حيث كانت ولا النظر المريض من الصحيح
وقال زهير:

وما يكُ في صديق أو عدوُّ تُجبرك العيونُ عن القلوبِ
وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال في العافية والكفاية عمره، حتى يرى في
عدوه ما يسره.